توجيهات ومواقف سلوكية

إعداد الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
توجيهات ومواقف سلوكية.عبدالعزيز عبد الله الحميدي—ط٢.
.- مكة المكرمة ، ١٤٣٢هـ
٢١٧ ص ؛ .. سم
ردمك ٣-٨٠٦٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- الوعظ والارشاد ٢- الاخلاق الاسلامية٣- التربية الاسلامية
أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ٧٧٢٦/ ١٤٣٢

رقم الإيداع : ٧٧٢٦/ ١٤٣٢
ردمك: ٣-٨٠٦٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

توجيهات
ومواقف سلوكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبد الله ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذه توجيهات ومواقف في المجالات السلوكية، وقد تم تَتَبُّع هذه التوجيهات وجمعها من سيرة الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان ، ولم يكن المقصود من ذلك استقصاء هذه الأخبار ، وإنما رصدتُ ما تم جمعه أثناء قراءتي في أمهات كتب التاريخ والتراجم وغيرها ، وها أنذا أقدمها لإخواني القراء لأخذ العبرة منها في مجال تعديل السلوك و تقويمه في هذه الحياة ، حيث إن فيها نماذج من حياة الاعتدال في النظر إلى الدنيا ودقة الموازنة بينها وبين الآخرة ، كما أنها تمثِّل صورًا من حياة السلف الصالح الذين استطاعوا كبح جماح أنفسهم وسياستها نحو الاستقامة والاعتدال، وذلك يبعث على تتبع آثارهم وحسن الاقتداء بهم .

توجيهات ومواقف

في

الورع والزهد والخشية

نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته

لقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين في الورع والزهد وخشية الله تعالى وفي غير ذلك من أمور الدين ، وقد ضرب من نفسه مثلا أعلى في تطبيق مادعا المسلمين إليه، فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عقبة بن الحارث النوفلي قال : صليت مع النبي ﷺ العصر، فلما سلم قام سريعا ، دخل على بعض نسائه ، ثم خرج ورأى مافي وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: ذكرت وأنا في الصلاة تِبْرا عندنا فكرهت أن يمسى – أو قال: يبيت– عندنا ، فأمرت بقسمته[1] .

وإن هذا التصرف من رسول الله ﷺ يُعدُّ مثالا عاليا للشعور بالمسؤولية ، والتحري الدقيق في القضايا المالية ، والمبادرة إلى تنفيذ التكاليف الشرعية وإن لم يكن وقت تنفيذها محددا خشية النسيان أو حضور الأجل .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٢٢١ ، العمل في الصلاة (٣/ ٨٩) ، والتبر هو الذهب .

وهذا لون من ألوان التربية النبوية المؤثرة حيث إن خروج النبي ﷺ من المسجد بهذه الصورة أثار عجب الصحابة وتساؤلهم فتهيأت نفوسهم لاستقبال هذا التوجيه العملي نحو الاهتمام بحقوق المسلمين والإسراع في إيصالها إلى مستحقيها .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وجد تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم يَنَمْ تلك الليلة ، فقال بعض نسائه : يارسول الله أَرِقْتَ الليلة ؟ قال : «إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه» [1] .

فهذا مثال على شدة ورع النبي ﷺ وعِظَم خشيته من الله تعالى ، فقد أرق ليلة كاملة من أكل تلك التمرة على قلتها خشية أن تكون من الصدقة ، وقد حرَّم الله تعالى الصدقة على بني هاشم، وبهذا الورع الشديد والخشية البالغة كان ﷺ قدوة عليا لأمته في ذلك .

---

(١) شمائل الرسول لابن كثير / ١١٣ – ١١٤ .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ومات رسول الله ﷺ وماترك دينارًا ولادرهما ولاعبدا ولا وليدة ،وترك درعه رهنًا عند يهودي بثلاثين صاعا من طعام»[1].

وهذا مثل أعلى في الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها ، فلقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يكون أغنى رجل في العرب وربما في العالم ، فلقد أفاء الله تعالى عليه في الغزوات أموالا عظيمة، ويكفي مثالا على ذلك غزوة حنين حيث كان يعطي الرجل الواحد مابين جبلين من الغنم والإبل، وأعطى عددا من زعماء العرب وأكابرهم كل واحد مائة من الإبل ولم يدخر لنفسه من ذلك شيئا، والْتَحق ﷺ بالرفيق الأعلى وهو على تلك الصفة المذكورة من التقشُّف والزهد البالغ .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلَتْ عليَّ امرأة من الأنصار فرأَتْ فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية ، فرجعَتْ إلى منزلها ، فبعثت إليَّ بفراش حَشوُه الصوف، فدخل عليَّ

---

(١) الزهد للإمام أحمد / ٤ ، والوليدة هي الجارية وهي المملوكة .

رسول الله ﷺ فقال: ماهذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأَتْ فراشك فبعثَتْ إليَّ بهذا ، فقال : رُدِّيه ، فلم أردَّه وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: ياعائشة رُدِّيه فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ، فرددته [1].

وهذا أعظم مايتصور من الزهد أن يكون بالإمكان أن تتحول الجبال ذهبا وفضة لرسول الله ﷺ - بإذن الله تعالى – ثم يزهد في ذلك كله وينام على عباءة ، ويُلحُّ على عائشة رضي الله عنها في ردِّ ذلك الفراش !

وأخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي عبد الرحمن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ : أن رجلا ضَافَ عليّا رضي الله عنه ، فصنع طعاما ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : لو دعونا رسول الله ﷺ فأكل معنا ، فدعوه ، فجاء فوضع يديه على عُضَادَتَى الباب فرأى قِرامًا في ناحية البيت عليه صورة فرجع ، فقالت فاطمة : الْحقه

---

(١) الزهد / ١٤ .

فاسألْه، فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس لي – أو قال : لنبي – أن يدخل بيتًا مُزَوَّقا»[1] .

وهكذا فزع النبي ﷺ من رؤية ذلك القماش الذي عُلِّق في ناحية من البيت ورجع ولم يدخل حتى أزيل ذلك القماش لكونه من مظاهر الدنيا .

وأخرج ابن سعد بإسناده عن جندب بن سفيان قال : أصابت النبيَّ ﷺ أَشاءَةُ نخلة فأدمت إصبعه ، فقال: ماهي إلا إصبع دُمِيَت ، وفي سبيل الله مالَقِيَتْ،قال:فحُمِل فوُضِع على سرير مرمول بِشُرُط[2] ، ووضِع تحت رأسه مِرفَقة من أدَم[3] محشوة بليف ، فدخل عليه عمر وقد أثَّر الشريط بجنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك ؟ قال: يارسول الله ذكرت كسرى وقيصر يجلسون على سُرُر الذهب ويلبسون السندس

---

(١) الزهد / ٧ ، والقرام هو الكساء .

(٢) أي منسوج بحبال من ليف .

(٣) أي وسادة من جلد .

والإستبرق – أو قال الحرير والإستبرق – فقال: أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا ؟ [1].

وهكذا كان سرير النبي ﷺ بهذه الصلابة والخشونة حتى أثر على جنبه ، وقد أثار هذا المنظر شفقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتذكر ماعليه ملوك فارس والروم ، من الترف والنعيم، فقارن بين المشهدين فبكى ، وقد بين له النبي ﷺ أن هدف أولئك الدنيا ، وقد نهلوا منها بأوفر نصيب ، ولكن لاحظَّ لهم في الآخرة ، وأن هدف المسلمين الحصول على السعادة الأخروية، فلذلك أَضْعَفوا من نصيبهم في الدنيا .

ومن أمثلة ورع النبي ﷺ ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيته ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر يقول : أَوْسِعْ من قبَل رجليه ، أوسع من قبَل رأسه ، فلما رجع استقبله داعي

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٤٦٦ .

امرأة فأجاب ونحن معه فجيء بالطعام فوضع يده ، ثم وضع القوم فأكلوا ، ففطن آباؤنا والنبي ﷺ يلوك لقمة في فيه- يعني فطنوا لتغير وجه النبي ﷺ - ، ثم قال: أجد لحم شاة أُخِذَتْ بغير إذن أهلها ، فأرسلت المرأة تقول : يارسول الله إني أرسلت إلى البقيع – وهو موضع تباع فيه الغنم – لتُشتَرى لي شاة فلم توجد ، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن يرسل بها إليَّ بثمنها ، فلم يوجد ، فأرسلت إلى امرأته فأرسلتْ بها إليَّ فقال ﷺ : أطعميه الأسارى» [1] .

وفي هذا الحديث نجد حماية الله تعالى نبيه ﷺ من الشبهات حيث أعلمه بأن تلك الشاة أُخذت بغير إذن مالكها ، كما نجد مثالا لورعه العظيم حيث رفع يده ولم يستمر في الأكل من تلك الشاة .

كما نجد مثالا للحزم في تطبيق الشريعة وأن النبي ﷺ لم يكن يداري أحدًا في ذلك .

ونجد في هذا الخبر لونا من ألوان التربية النبوية حيث أمسك

---

(١) سنن أبي داود رقم ٣٢٣٢ ، البيوع ٣/ ٦٢٧ .

عن الأكل حالاً ، وأمر المرأة بأن تطعم ذلك الطعام أسرى المشركين وفي ذلك أمر للصحابة بعدم الأكل منه ، وهذه الحادثة وأمثالها تبقَى ماثلة في أذهانهم فيحميهم تذكُّرُها من مقارفة الشبهات .

ونجد مع ذلك عظمة التشريع الإسلامي في حماية حقوق الناس، فإنه بعد هذا لن يتجرأ أحد على الأخذ من أموال الناس بغير إذنهم وسيتوقف الطرف الآخر عن الاستفادة حتى يتأكد له أن المال مأذون به من مالكه .

وأخرج البلاذري من خبر محمد بن شهاب الزهري أن النبي ﷺ بعث عليًّا إلى بني جذيمة الذين قتل خالد بن الوليد منهم من قتل ، بدُرج فيه ذهب فأعطاهم ديات من قتل منهم وما أصيب من أموالهم، وفضُل في الدرج شيء من الذهب فقال لهم علي : هل لكم في أن أعطيكم هذا الفضل على أن تُبرئوا رسول الله ﷺ مما أصيب لكم مما لاتعلمونه ولايعلمه رسول الله ﷺ؟قالوا:نعم ،فأعطاهم ذلك الفضل،

فلما بلغ النبي ﷺ مافعل قال:«لَهذا أحب إلي من حمْر النعم» [1].

وهكذا كانت فرحة رسول الله ﷺ عظيمة حينما أبرأ علي رضي الله عنه ذمته بذلك المال حيث ذكر بأن محبته لذلك أعظم من محبته لحمْر النعم ، وحمر النعم هي الإبل وهي أنفس الأموال عند العرب ، وهذا مثال على ورع النبي ﷺ واهتمامه ببراءة الذمة من مسؤولية الناس .

كما أن هذا الخبر يدل على علم علي رضي الله عنه العميق واهتمامه بالورع .

---

(١) أنساب الأشراف ٢/ ٣٥٤ .

من مواقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه

اشتهر الصحابة رضي الله عنهم بالورع والزهد ، وقد ذكرت أمثلة من ورع وزهد أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم في «السيرة النبوية » و «تاريخ الخلفاء الراشدين» .

ومن أخبار أبي بكر الصديق في ذلك مارواه الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلَّته لم يأكل من غلته حتى يسأله ، فإن كان شيئًا مما يحب أكل ، وإن كان شيئًا يكره لم يأكل، قال: فنسي ليلةً فأكل ولم يسأله ، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهه، فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا [1] .

وفي رواية أنه رضي الله عنه لم يستطع إخراج تلك اللقمة ، فقال له من حوله : إنها لاتخرج إلا بالماء ، فشرب فخرجت ، فقيل له : رحمك الله ، كلُّ هذا من أجل هذه اللقمة ، فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل جسم نبت من

---

(١) الزهد / ١١٠ .

حرام فالنار أولى به » .

فهذا مثال على ورع أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويجتنب الشبهات ، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عُليا في التقوى ، ولايَخْفَى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين ، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء ، كما في حديث الأشعث الأغبر وفيه «يمدُّ يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام ، فَأَنَّى يستجاب لذلك» [1] .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة قال قالت عائشة رضي الله عنها : لما حُضِر أبي رحمه الله دعاني فقال : يابُنَيَّة إني كنت أعطيتك تمر خيبر ولم تكوني أخذتيها وإني أحب أن ترديها علي ، قالت : فبكيت ، ثم قلت : غفر الله لك يا أَبَةِ والله لو كانت خيبر ذهبا جميعا لرددتها عليك ، فقال: هي على كتاب الله عز

---

(١) صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠١٥ (٢/ ٧٠٣) .

وجل ، يابُنَيَّة إني كنت أَتْجَر قريش[1] وأكثرهم مالا ، فلما شَغَلَتْنِيَ الإمارة رأيت أن أصيب من المال بقدر ما شغلني ، يابُنيَّة هذه العباءة القطوانية وحِلابٌ [2] وعبدٌ ، فإذا مت فأسرعي به إلى ابن الخطاب ، يابُنيَّة ثيابي هذه فكفنوني بها ، قالت : فبكيت وقلت : يا أبة نحن [في غِنًى] من ذلك ، فقال:غفر الله لك وهل ذلك إلا للمَهَل[3]؟ وفي رواية أنه قال: الحيُّ أولى بالجديد من الميت .

قالت : فلما مات بعثت بذلك إلى ابن الخطاب فقال : يرحم الله أباك لقد أحب أن لا يترك لقائل مقالا [4].

فهذا مثل آخر من ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد أراد أن يخرج من الدنيا وهو نَقِيٌّ خالص من الكدر أو مايشبهه ، وقد كان

---

(١) لعلها : من أتجر قريش .

(٢) أي ناقة حلوب .

(٣) أي لمدة قصيرة ثم يبلى .

(٤) الزهد / ١١١ .

يأخذ من بيت مال المسلمين مايكفيه للحد الضروري من المعيشة مقابل تفرغه لأمور المسلمين وترك التجارة ، فلما حضرتْه الوفاة رأى أن ذمته لاتبرأ إلا بردِّ ماكان عنده من ذلك وإن كان يسيرا لتوقف عمله لصالح المسلمين بالوفاة ، وذلك مبالغة منه رضي الله عنه في براءة الذمة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أخدم النبي ﷺ ... وذكر حديثًا ثم قال : إن رسول الله ، أعطاني بعد ذلك أرضا وأعطى أبا بكر أرضًا وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة ، فقلت أنا : هي في حدِّي ، وقال أبو بكر ،هي في حدي ، فكان بيني وبين أبي بكر كلام ، فقال أبو بكر كلمة كرهها وندم فقال لي : ياربيعة رد عليها مثلها حتى تكون قصاصا ، قال : قلت : لا أفعل ، فقال أبو بكر ، لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ ،فقلت:ماأنا بفاعل ، قال: ورفض الأرض [1]

---

(١) أي فارق أبو بكر الأرض .

وانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقت أتلوه ، فجاء ناس من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو قال لك ماقال ، فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين ، إياكم لايلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة ، قالوا: ماتأمرنا؟ قال: ارجعوا، قال : فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فتبعته وحدي حتى أتى النبي ﷺ فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إلي رأسه فقال: ياربيعة مالك وللصديق ؟ ! قلت : يارسول الله كان كذا كان كذا ، قال لي كلمة كرهها فقال : قل لي كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت ، فقال رسول الله ﷺ : أجل فلا ترد عليه ، ولكن قل : غفر الله لك يا أبا بكر ، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر .

قال : قال الحسن [البصري]:فولَّى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي (١) .

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٥٨ – ٥٩ .

فهذا الخبر يدل على ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخشيته من الله تعالى،فحينما قال –في ساعة غضب–تلك الكلمة لربيعة بن كعب رضي الله عنه ندم على ذلك ،وخشى أن يحاسب عليها يوم القيامة،فأهمه ذلك الأمر وطلب من ربيعة أن يرد عليه بمثلها ليطهر صحيفته منها، فلما أبي اشتكاه إلى النبي ﷺ ليضمن النجاة من مغبة تلك الكلمة،وهذا أمر عجيب فإنَّ أبابكر قد نسى أرضه ونسي قضية الخلاف،وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لابد فيها من عفو صاحب الحق.

وقد استنكر قوم ربيعة أن يذهب أبو بكر يشتكي إلى رسول الله ﷺ وهو الذي قال ماقال ، ولم يعلموا ماعلمه أبو بكر من لزوم إنهاء قضايا الخصومات ، وإزالة ماقد يعلق في القلوب من الموجدة في الدنيا قبل أن يكتب ذلك في الصحف ويترتب عليه الحساب يوم القيامة .

وعلى الرغم مما ظهر من رضى ربيعة وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

وأخيرًا موقف يذكر لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، حيث قام بإجلال أبي بكر رضي الله عنه ، وأبى أن يرد عليه بالمثل ، وهذا من تقدير أهل الفضل والتقدم والمعرفة بحقهم ، وهو دليل على قوة الدين ورجاحة العقل .

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من حديث عائشة وعبد الله ابن عمر رضي الله عنهم وغيرهم أنهم قالوا: بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم قبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ، وكان منزله بالسُّنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحارث بن الخزرج ، وكان قد حجَّر عليه حجرة من شعر فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة ، فأقام هناك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له ، وعليه إزار ورداء ممشق ، فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح ، فكان إذا حضر صلى بالناس ، وإذا لم يحضر صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قالوا : وكان يقيم يوم الجمعة في صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس ، وكان رجلا تاجرا ، فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو نفسه فيها ، وربما كُفِيها فرُعيت له ، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لاتُحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو أن لايغيرني مادخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي:ياجارية أتحبين أن أرغي لك أو أصرح [1]؟ فربما قالت: أرغ ، وربما قالت : صرح ، فأي ذلك قالت فعل .

قالوا : فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها ، ونظر في أمره فقال: لا والله مايُصلح أمر الناس التجارة ، ومايصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم، ومابُدٌّ لعيالي مما يصلحهم ،

---

(١) أي أجعل للحليب رغوة أو اجعله خالصا منها .

فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوما بيوم،ويحج ويعتمر،وكان الذي فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم[1]، فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ماعندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا ، وإنَّ أرْضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ،فدُفِع ذلك إلى عمر رضي الله عنه ولَقُوح[2]وعبد صَيْقل[3]وقطيفة ماتساوي خمسة دراهم ، فقال عمر : لقد أتعب من بعده[4].

ففي هذا الخبر بيان شيء من أخلاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزهده وورعه ، فمن ذلك أنه كان يحلب لأهل حيِّه أغنامهم ، وهذا تواضع كبير من رجل كبير .. كبير في سنه ، وكبير في منزلته وجاهه ، حيث كان خليفة المسلمين ، وكان حريصا على أن لاتغير

---

(١) لكن الظاهر أنه لم يقبل ذلك لأن المشهور أنه كان ينفق درهمين كل يوم .

(٢) أي ناقة صغيرة .

(٣) أي يصقل السيوف ويحدُّها .

(٤) طبقات ابن سعد ٣/ ١٨٥ – ١٨٧ .

الخلافة شيئا من معاملته للناس وإن كان ذلك سيأخذ عليه وقتا هو بحاجة إليه ، كما أن هذا العمل يدلنا على مقدار تقدير الصحابة رضي الله عنهم لأعمال البر والإحسان وإن كلَّفتهم الجهد والوقت .

ومن ذلك أنه اكتفى بذلك المبلغ البسيط الذي كان يأخذه من بيت المال مقابل تفرغه للولاية، وهذا مثل على زهده في الحياة الدنيا واكتفائه منها بما يبلغه للحياة الآخرة .

ومن ذلك تورعه عما بقي عنده من المال العام حينما حضرته الوفاة ، وهو مبلغ زهيد لايلفت النظر، ولكن لدقة إحساسه تنبَّه له ، وكذلك ماقام به من الوصية بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه وعياله منه ، وهكذا رغب في أن يكون عمله في الولاية تطوعا تعففا منه وورعًا رضي الله عنه ، ولقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه ببيان أن العمل الذي قام به لايستطيع أحد أن يقوم به إلا بصعوبة بالغة .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

لقد كانت لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جهود في حماية المسلمين من الدخول في حياة الترف والنعيم ومايترتب على ذلك من نتائج سيئة في الدنيا والآخرة ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما نزل أهل الكوفة الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار عرف القوم أنفسهم وثاب إليهم ماكانوا فقدوا ، ثم إن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب واستأذنه فيه أهل البصرة ، فقال عمر : العسكر أَجَدُّ لحربكم وأذكى لكم وما أحب أن أخالفكم ، وما القصب ؟ قالوا : العِكْرش إذا رَوِي قصَّب فصار قصبا [1] قال : فشأنكم فابْتَنَى أهل المصرين بالقصب .

ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة وكان أشدهما حريقا الكوفة، فاحترق ثمانون عريشا، ولم يبق فيها قصبة في شوال ، فما زال الناس يذكرون ذلك ، فبعث سعد منهم نفرًا إلى عمر يسأذنون في

---

(١) العكرش نبات شوكي ينبت من نزوز الأرض .

البناء باللَّبِن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق ومابلغ منهم – وكانوا لايدعون شيئا ولايأتونه إلا وآمَروه فيه [يعني شاوروه] – فقال : افعلوا ولايزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات [يعني غرف] ولاتطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة ، فرجع القوم على الكوفة بذلك ، وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك .

قال : وعهد عمر إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لايرفعوا بنيانا فوق القدر ، قالوا: وما القدر؟ قال: مالا يقربكم من السَّرف، ولايخرجكم من القصد [1].

هذا ومن استعراض هذا الخبر يتبين لنا أن أولئك القوم كانوا زاهدين في مظاهر الدنيا ، فهم يريدون من المساكن مايكنّهم من الشمس والمطر والبرد والحر ، ولايهمهم التمتع بالقصور والبيوت العالية ، ولذلك اختاروا التعريش بالقصب الذي كان أيسر الأشياء لديهم حتى اضطروا إلى البناء بالطين ، ومع ذلك نجد عمر رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٤٣ .

عنه يضع لهم الاحتياطات اللازمة لمنع التنافس والتطاول في البنيان .

وهذا إدراك بعيد المدى لما يُتوقع أن تكون عليه الأمة من الغنى بعد الفتوح ، فهو يحاول في هذا التوجيه وأمثاله أن يحدَّ من اندفاع الأمة نحو الإسراف والترف ، وأن يحملها على حياة القصد والاعتدال .

وإن هذا التوجيه له أصل من سنة رسول الله ﷺ ، وذلك في قوله: النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه » .

أخرجه الإمام الترمذي من طريقين وقال: هذا حديث صحيح[1] .

ومن كلام عمر رضي الله عنه السابق يتبين لنا أن المقصود بالبناء الذي لاخير فيه ماقرب من الإسراف وأخرج من القصد والاعتدال .

وإن من أعظم مظاهر الإسراف التطاول في البنيان ، وذلك لأن البنيان يستهلك من الإنسان مالا كثيرًا ووقتًا طويلاً ، فإذا انصرف له

---

(١) سنن الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، باب ٤٠ رقم ٢٤٨٢ و ٢٤٨٣ .

الإنسان بالاهتمام استحوذ على تفكيره حتى يبقى هو الهم الأكبر عند بعض الناس .

ومن أجل إقامة بنيان يتفوق فيه الإنسان على من دونه ويحاذي فيه من يرى أنهم في طبقته في الغنى أو يطاول من هم أعلى منه في ذلك. من أجل ذلك يضع ثروته في تشييد القصر الذي سيسكنه، وقد يستدين من أجل أن يحقق في نفسه هذه الرغبة ، فيبقى عُمْرًا من عمره ولا مال له إلا هذا القصر الذي يكمل فيه ويجمِّل ، غير ملتفت إلى مايكون قد قصَّر فيه من النفقة الواجبة ولا إلى ما أهمله من عبادة الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام والتي لايستطيع أن يجمع نصابها لإنفاقه ماله في التطاول في البنيان .

ولئن كان مايخشاه عمر رضي الله عنه من الانفتاح الدنيوي في عهده ويحاول أن يحجز الأمة عن التوغل فيه في ناحية البنيان لايعدو أن يكون بناء محدودًا ينتهي إعداده في أمد قصير فإن إعداد البناء في عصرنا هذا قد يستغرق سنوات من العمر ، ثم قد يعقبه في أحوال كثيرة ديون متراكمة يظل صاحبها يجمع فضول أمواله لسدادها ، وقد

يمر عليه سنون من عمره وهو لايعرف عن الزكاة شيئًا مع أنه يعدُّ من المتوسطين في الغنى الذين هم غالبية الناس ، لأن القصور التي تعارف أكثر الناس عليها تتطلب أنواعًا غاليةً من الأثاث والكماليات التي ترهق طالبها وتجعله يظل يلاحق أنفاسه سنوات عَلَّه يصل إلى ماتصبو إليه نفسه من مشاكلة الناس في مظاهر الحياة الدنيا.

وفي خِضَمِّ هذا التنافس تضيع أحيانًا بعض مطالب الإسلام الحيوية من العبادات المالية التي على رأسها الزكاة والإنفاق على المجاهدين في سبيل الله تعالى ، كما أنه قد ينشغل فكر الإنسان أحيانًا عن الأمور المهمة كالصلاة وطلب العلم .

وقول عمر « مالا يقربكم من السرف ولايخرجكم من القصد» يعني أن حدود البناء المشروع مالايقرب صاحبه من الإسراف وهو مجاوزة الحد المشروع ولايخرجه من حدود الاعتدال، وقد ترك عمر رضي الله عنه تحديد ذلك لهم ، لأن لكل بلد عرفٌ خاص به ، يتحدد به الإسراف والاعتدال والتقتير ، فالقصد إذًا يحدده العرف السائد في البلد لدى أوساط الناس من أهل الاستقامة والالتزام بالاعتدال في

الأمور الدنيوية .

فإذا شرع المسلم في بناء بيت فلْيلاحظ هذا العرف العام ، ولاينبغي له أن يتعرض لنقد أهل الصلاح والتقوى ، خاصة إذا كان من أهل العلم الديني ، حيث يُفترض في هؤلاء أن يكونوا قدوة صالحة لمجتمعهم ، وأن يكونوا هم الذين يحددون العرف الصالح الذي يسير عليه أفراد المجتمع الإسلامي .

وقوله «والزموا السنة تلزمكم الدولة» يعني أن الالتزام بالطريق المستقيم الذي سار عليه رسول الله ﷺ سبب في الإدالة على الناس والتمكين في الأرض،كما جاء في قول الله تعالى﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

ولقد كان هذا التزهيد من عمر رضي الله عنه في مظاهر الدنيا مع أن المسلمين آنذاك كانوا يتنافسون في هذا الزهد ، فكيف بمن جاؤوا

بعدهم على مرِّ العصور ممن يتنافسون على مظاهر الدنيا؟

هذا ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حريصا على علاج أمر الانفتاح المادي الذي كان في عصره حيث فتحت بلاد الفرس وأجزاء من بلاد الروم ، فأفاء الله تعالى على المسلمين من غنائم الفتوح وفيء البلاد وخراجها أموالا عظيمة ، ولقد خطب أمير المؤمنين عمر خطبة بليغة شخص فيها ذلك الواقع وأرشد المسلمين إلى السلوك الأمثل .

وإن واقع المسلمين اليوم في بعض بلادهم يشبه ماكان في عهد الصحابة رضي الله عنهم إبَّان الفتوح ، من ناحية انفتاح خزائن الأرض وتوافر الأموال بشكل لم تتوقعه الأمة ولم تترقب حصوله بذلك المستوى الكبير ، وإن خطبة أمير المؤمنين عمر التي سَيَتمُّ عرضها تظل جديدة نابضة بالحياة والعطاء ، حيث تعالج واقعا نعاصره ، وإذا كان الصحابة رضي الله عنه ومن عاصرهم من التابعين بحاجة إلى هذه الوصايا النافعة فإننا في هذا العصر أحوج إلى ذلك بكثير ، لأن مستوى الإيمان أقل، ومستوى البصيرة أخف .

ولقد كان عمر رضي الله عنه يخشى على الأمة آنذاك من الغفلة عن شكر المنعم جل وعلا، فقام مذكِّرا بالله تعالى ومايجب له من الشكر والتوحيد الخاص ، حيث قال: «إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحُجَج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا، عن غير مسألة منكم له ولارغبة منكم فيه إليه » .

فذكَّرهم بأن تلك النعم العظيمة التي أفاءها الله تعالى عليهم من الفتوح لم يكونوا يتوقعونها على ذلك النحو العظيم ، ثم ذكَّرهم بالهدف العالي الذي خلقهم الله جل وعلا من أجله، وماسخر لهم من النعم حيث قال: « فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئًا لنفسه وعبادته ، وكان قادرا على أن يجعلكم لأهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامة خلقه ، ولم يجعلكم لشئ غيره، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعا وبصرا» .

فقد ذكر الميزة العظمى للإنسان حيث شرفه الله تعالى على سائر

المخلوقات في هذه الأرض، فسخر كل مافيها له ، ولم يسخره لشيء من المخلوقات الأخرى، وبيَّن الهدف الأعلى من خلق الإنسان وهو القيام بعبادة الله تعالى وحده ، مع تذكُّر شمول العبادة لكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، ومن ذلك عمارة الأرض بطاعته سبحانه .

ثم ذكر النعم التي خص الله بها هذه الأمة حيث قال : «ومن نعم الله تعالى عليكم نِعَمٌ عمَّ بها بني آدم – يعني كالتي مر ذكرها – ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعمة نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وَفَدَحَهم حقها ، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله » .

ومن النعم التي اختص الله بها أهل هذا الدين كون السيادة في العالم لهذه الأمة ولم تكن قبل ذلك لأهل دين من الأديان ، وأصبح مايوجد في بلاد العالم من النعم الخاصة والعامة يجتمع في دولة الإسلام لأنها قد هيمنت على دول العالم .

وفي قوله « إلا بعون من الله مع الإيمان بالله ورسوله» بيان للدوافع القوية التي تدفع إلى شكر المنعم جل وعلا ، من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، وما يتفرع عن ذلك من العمل الصالح، ثم بالاستعانة بالله جل وعلا مع تعظيمه وإجلاله وصدق النية .

ثم يبين مهمة هذه الأمة في الأرض بعدما أفاء الله عليها من الفتح والتمكين حيث يقول:« فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفةً لدينكم إلا أمتان: أمة مستعْبَدة للإسلام وأهله يَجْزُون لكم [1] يُستصفَون معايشهم وكدائحهم ورشح جباههم، عليهم المؤونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رعبا ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولامهرب يتقون به ، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم » .

فهذه الأمة الإسلامية قد اختارها الله تعالى لتكون فيها الرسالة

---

(١) يعني يدفعون لكم الجزية .

الخاتمة ، ولتتولَّى قيادة البشرية، فمكَّن لها واستخلفها في الأرض وأذل لها أمة الفرس التي كانت تسيطر على المشرق وأزال دولتهم من الوجود ، وأصبحت بلادهم جزءًا من دولة الإسلام ، كما أذل الله تعالى لها أمة الروم التي تسيطر على المغرب ، حيث اكتسحت جنود الإسلام بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيطرتهم ، ثم غزوهم في عُقر دارهم .

ثم يُعَدِّد نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث يقول :«مع رَفَاغَة العيش – يعني سعته – واستفاضة المال وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله تعالى ، مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود ، مع الفتوح العظام مع كل بلد، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكرُ الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لايُحصَى عددها ولايُقْدَر قدرها ، ولايُستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه ، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته» .

وعمر رضي الله عنه في هذا الكلام يحث على شكر هذه النعم ويبين أنه مع شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين بالعبادة لن يستطيع المسلمون بلوغ شكرها ولا أداء حقها إلا إذا شملهم الله تعالى بعونه ورحمته ولطفه .

وهذا يعدُّ فهما وتطبيقا للآية الكريمة التي شرع الله تعالى لنا تكرارها في كل صلاة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة :٥] فإذا لم يكن هناك عون من الله تعالى للعبد فإنه لايصل إلى مقام الشكر وإن اجتهد في العبادة ، وما أحسن قول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجني عليه اجتهاده

وإذا لم يشمل الله تعالى عباده برحمته ولطفه فإنهم هالكون كما قال رسول الله ﷺ «لايدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا: ولا أنت يارسول الله ! قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، ووضع يده على رأسه» (١) .

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٢٥٦ .

ثم ختم خطبته بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم حيث جمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، والحال أن الظفر بخير الآخرة وحده يكفي لشعور المؤمن بنعمة ربه العظمى عليه، فكيف إذا جمع معه خير الدنيا ؟

إلى أن قال : فأذكِّركم الله الحائل بين قلوبكم إلاَّ ماعرفتم حق الله فعملتم به، وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفًا لها ولِا نْتِقَالها ووجلاً منها ومن تحويلها ، فإنه لاشيء أسلب للنعمة من كُفرانهَا ، وإن الشكر أَمْنٌ للغِيَر ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة، هذا لله عليَّ من أمركم ونهيكم واجب (1) .

ولقد كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مواقف كثيرة في الزهد والورع نذكر نماذج منها ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: أُتِيَ عمر بمال فوُضِع في المسجد ، فخرج إليه يتصفَّحه وينظر إليه فهملتْ عيناه ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٧ .

فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين مايبكيك فوالله إن هذا لَمِنْ مواطن الشكر ، فقال عمر: إن هذا والله ما أُعْطِيَهُ قوم قط إلا أُلقِيَ بينهم العداوة والبغضاء [1] .

فهذا يعدُّ من فقه عمر رضي الله عنه فقد أشفق على المسلمين من أن يفتتنوا بالدنيا ، فتكون سببا في تباعد قلوبهم وإثارة النـزاع بينهم ، ولقد بلغ به التأثر من ذلك إلى حد البكاء ، وقد اختلفت نظرة الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما إلى ذلك المال ، فنظر إليه عمر على أنه سبب من أسباب الفتنة ، ونظر إليه عبد الرحمن بن عوف على أنه نعمة من الله تعالى ، وكلا النظرتين تَصْدُقان على ذلك المال ، وكل واحد من هذين الصحابيين يدرك النظرتين كلتيهما ، لكن في تلك اللحظة غَلَبَ على فكر عمر الإشفاق على الأمة من الخطر الذي هي مُقْدمة عليه فبكى ، وغلب على عبد الرحمن بن عوف ملاحظة شكر النعمة فأظهر الفرح .

---

(١) الزهد/ ١١٥ .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث يحيى ابن جَعْدة قال: قال عمر رضي الله عنه : لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله عز وجل : لولا أن أضع جبهتي لله عز وجل ، وأجلسَ في مجالس يُنتقَى فيها طيب الكلام كما يُنتقى فيها طيب التمر ، وأن أسير في سبيل الله عز وجل[1] .

ففي هذا الخبر حدد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنواعا من الأعمال الصالحة يحب البقاء في الحياة من أجلها ، فالمؤمن الحق يحب لقاء الله تعالى ، لأن هذه الحياة الدنيا ليست دار قراره وإنما دار قراره الحياة الآخرة ، فهو يشتاق إلى نعيمها المقيم ، ولايحب البقاء في الدنيا إلا للعمل الصالح الذي يرفع من درجاته في حياته الباقية ، وقد أشار عمر إلى ثلاثة من أجلِّ الأعمال الصالحة، وهي الصلاة ، ومجالس العلم والذكر ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد كان رضي الله عنه من المكثرين من صلاة النفل ، وممن تَعمر بهم مجالس العلم والذكر ، أما

(١) الزهد للإمام أحمد / ١١٧ .

الجهاد فكان هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في بلاد العالم ، وكان الجهاد شُغْلَه الشاغل الذي أهمه وغلب على تفكيره، أما في داخل المجتمع الإسلامي فكان إمام المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وهكذا تكون الأهداف السامية ، فكيف بمن يرغبون في البقاء في الحياة الدنيا من أجل أموال يُثَمِّرونها ، أو قصور يعمرونها ، أو شهوات يغذُّونها ؟! أولئك هم الخاسرون الذين قَصُرت أنظارهم، وتدنَّت أهدافهم ، ففضلوا الأدنى على الأعلى والفاني على الباقي .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن محمد ابن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عمر رضي الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال عمر : والله لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل : أنا جيدة الوزن فهلمَّ أَزِنْ لك ، قال: لا ، قالت : لِمَ ؟ قال: - إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا وأدخل أصابعه في صدغيه – وتمسحي به عنقك، فأصيب

فضلا على المسلمين [1] .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واحتياطه البالغ لأمر دينه ، فقد أبى على امرأته أن تتولى قسمة ذلك الطيب حتى لاتمسح عنقها منه فيكون قد أصاب شيئًا من مال المسلمين، وهذه الدِّقة المتناهية في ملاحظة الاحتمالات التي قد توقع في المحرمات أو الشبهات نورٌ يهبه الله تعالى لأوليائه السابقين إلى الخيرات ، وفرقان يفرقون به بين الحلال والحلام والحق والباطل، بينما تفوت هذه الملاحظات على الذين لم يشغلوا تفكيرهم بحماية أنفسهم من المخالفات.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي قال: لما قدم عتبة [2] أذربيجان أُتِيَ بالخبيص فأمر بسفطين عظيمين [3]

---

(١) الزهد للإمام أحمد / ١١٩ .

(٢) هو عتبة بن فرقد .

(٣) السَّفَط وعاء كالقفَّه والخبيص نوع من الحلوى .

فصُنِعا له من الخبيص ، ثم حمل على بعير فسرِّح بهما إلى عمر رضي الله عنه ، فلما قدم على عمر ذاقه فوجده شيئًا حلوا ، فقال: كل المسلمين يشبع من هذا في رحله ؟ قال: لا ، قال: فلا حاجة لنا فيه فأطَبقهما وردهما عليه ، ثم كتب إليه: أما بعد فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك [1] .

فهذه نظرة جليلة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في التأكيد على مبدإ المساواة بين المسلمين، فالمطلوب في حياة المسلمين هو الزهد والتخشن في المعيشة الذي أوصى به عمر عتبة بن فرقد، ولكن لو فُرِض أن الخير عمَّ المسلمين فأصبحوا كلُّهم يحصلون على الأطعمة الشهية فإن تناولها في بعض الأحيان لاينافي حياة الزهد ، ولكن حينما تكون هذه الأطعمة مقصورة على الخاصة فإن ذلك لايجيز للوالي أن يصرف مال المسلمين لإطعام الخاصة منها، ولذلك قال عمر لعتبة

---

(١) الزهد / ١٢١ . وأخرج نحوه الإمام مسلم – صحيح مسلم ، رقم ٢٠٦٩ / ١٢ كتاب اللباس .

حينما كتب إليه « فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك» .

وكذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : أقبلْتُ فإذا الناس بين أيديهم القِصَاع ، فدعاني عمر فأتيته ، فدعا بخبز غليظ وزيت ، قال: قلت له: أمَنَعْتني أن آكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا ؟ قال: أنا دعوتك على طعامي فأما هذا فطعام المسلمين [1] .

فهذا مثل من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فإنه لم يُسَوِّ نفسه بعامة المسلمين في الطعام فضلا عن أن يزيد عليهم ، وقد كان مقبولا منه أن يأكل من طعام عامة المسلمين، ولكنه لتقشفه وزهده يختار لنفسه طعامًا أقل ثمنًا من ذلك .

وأخرج الإمام أحمد أيضًا من حديث مصعب بن سعد قال : قالت حفصة بنت عمر : ياأمير المؤمنين لو لبسْتَ ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك فقد وسع الله عز وجل

---

(١) الزهد/ ١٢١ .

من الرزق وأكثر من الخير ، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ماكان رسول الله ﷺ يَلْقَى من شدة العيش ؟ فمازال يذكِّرها حتى أبكاها ، فقال لها: إنْ قلتُ لك ذاك إني والله لَئِنْ استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرَّخِيِّ [1] .

فهذا بُعْدُ نظر من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فهو يرى أنه كلما زاد في الزهد في الدنيا والتقشف في المعيشة فإنه حرِيٌّ بأن ينال مزيدًا من العيش الرَّخِيِّ في الجنة ، فلهذا قال: «لئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرخي» .

وهو يريد بذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه .

ولقد كان شديد الالتزام بسنة رسول الله ﷺ ، وذلك حينما ذكَّر ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بمعيشة رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من أسباب عصمته من الدنيا التي انفتحت في عهده بشكل لم يسبق له مثيل في حياة العرب .

---

(١) الزهد/ ١٢٥ .

ومن أمثلة ماكان يتصف به عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى ما أخرجه الإمام البخاري من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : لما طُعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس- وكأنه يجزِّعه - : يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت صَحَبَتَهم ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون ، قال : أمَّا ماذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإن ذلك مَنٌّ من الله تعالى مَنَّ به علي ، وأما ماذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإن ذلك مَنٌّ من الله جل ذكره منَّ به علي ، وأما ماترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك ، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه [1] .

لقد كان عمر رضي الله عنه يخاف هذا الخوف العظيم من عذاب

---

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٩٢ (٧/ ٤٣) .

الله تعالى مع أن النبي ﷺ شهد له بالجنة ، ومع ماكان يبذل من جهد كبير في إقامة حكم الله والعدل والزهد والجهاد وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وإن في هذا لدرسًا بليغًا للمسلمين عامة في تذكر عذاب الله الشديد وأهوال يوم القيامة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر سالم بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده قال : لما ولي عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له ، فكان بذلك فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين،منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير، رضي الله عنهم، فقال الزبير : لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه ، فقال علي : وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا ، فقال عثمان : إنه عمر، فهلموا فلنستبرئ ماعنده من وراء ، نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها، فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر ، ولاتسمى له أحدًا إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها فلقيتْ عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه ، وقال: من هؤلاء ؟ قالت: لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك ، قال: لو علمتُ من هم لَسُؤْتُ

وجوههم ، أنت بيني وبينهم، أنشُدك الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشَّقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجُمَع ، قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : خَبْزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكَّة لنا فجعلناها هشَّة دسمة ، فأكل منها وتطعَّم منها استطابةً لها ، قال : فأي مُبْسَط كان يبسطه عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء لنا ثخين كنا نربِّعه في الصيف فنجعله تحتنا ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه ، قال : ياحفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدَّر فوضع الفضول مواضعها وتبلَّغ بالتزجية [أي الاكتفاء بالقليل] ، وأني قدَّرت ، فو الله لأضعنَّ الفضول مواضعها ولأتبلَّغن بالتَّزجية ، وإنما مثلي ومثلُ صاحَبيَّ كثلاثة سلكوا طريقا ، فمضى الأول وقد تزود زادا فبلغ ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما

لم يجامعها [1] .

فهذا دليل على زهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعفته حيث اكتفى بالقليل من بيت المال مقابل تفرغه لأمور الأمة ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم أن تولى الخلافة وافق على ترك التجارة ولم يقبل بأكثر من درهمين خصصهما له أهل الحل والعقد في اليوم، فاستمر ذلك في عهد عمر ، ثم أدرك من جاء ذكرهم في الخبر من أهل الحل والعقد بأن هذا المبلغ لايكفي بعد أن توسعت دولة الإسلام فأرادوا أن يزيدوا في ذلك المخصص ، فكان هذا الموقف الأخلاقي الرفيع الذي صدر من عمر رضي الله عنه .

وهذا الموقف يدل على ضخامة الحياة الآخرة في عين عمر وأنه كان يرتب سلوكه في الحياة الدنيا على اعتبار النظر إلى الرفعة في الآخرة ، فلذلك اكتفى بالقليل من المعيشة وفرض على نفسه وأسرته نظامًا شديدًا في التقشف والزهد ، وجعل مثَلَه الأعلى في ذلك رسول

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦١٦ –٦١٧ .

الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، فلزم السير على منهاجهما في حياة الزهد وإن كانت أنماط الحياة قد تغيرت بعض الشيء في عصره ، وهذا يدل على غزارة علمه وقوة إيمانه .

ولقد كانت قناعته بهذا المنهج الزهدي كبيرة ، حيث ثار غضبه من ذلك العرض الذي عرضته عليه ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها .

ومن أمثلة ورعه ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر الربيع بن زياد الحارثي قال: كنت عند عمر رضي الله عنه فوضع يده على بطنه ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: طعام غليظ أكلته أُذِيْتُ منه ، قلت: يا أمير المؤمنين إن أولى الناس بالمطعم اللين والملبس اللين لأنت، قال: فتناول عُصَيَّة فقرع بها رأسي وقال : كنت أحسب فيك خيرا ياربيع بن زياد ، قلت: مالك يا أمير المؤمنين ؟قال: والله ماأردت بها إلا مقاربتي ، أتدري مامثلي ومثلهم ؟ قال : مامثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم أرادوا سفرا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل وقالوا : أنفق

عليك وعلينا أفَلَه أن يستأثر عليهم ؟ قلت: لا ، قال : فكذلك [1] .

ففي هذا الخبر مثل من عفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه ، حيث ساوى نفسه بأوساط الناس ولم يؤْثر نفسه بشيء من أموال الأمة ، والمثل الذي ضربه عمر للوالي والرعية يدل على شدة تحرِّيه في الأمور المالية ، فإن الأموال العامة مشاعة بين الأمة، ومهمة الحاكم أن يتولى سياسة إنفاقها وتوزيعها بالعدالة ، كما يفعل ذلك من اختاره المسافرون لصرف نفقاتهم في السفر .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر معدان ابن أبي طلحة اليعمري أنه قدم على عمر رضي الله عنه بقطائف وطعام ، فأمر به فقسم ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني لم أرزقهم ولن أستأثر عليهم إلا أن أضع يدي مع أيديهم في طعامهم ، وقد خفت أن تجعله نارًا في بطن عمر.

قال معدان : ثم لم أبرح حتى رأيته اتخذ صحفة من خالص ماله

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٦٩٧ – ٦٩٨ .

فجعلها بينه وبين جفان العامة [1] .

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يرغب في أن يأكل مع عامة المسلمين لما في ذلك من المصالح الاجتماعية ، ولكنه يتحرج من أن يأكل من طعام صنع من مال المسلمين العام ، فيأمر بإحضار طعام خاص له من خالص ماله ، وهذا مثال رفيع في العفة ، إذ أن الأكل من مال المسلمين العام معهم ليس فيه شبهة تحريم لأنه منهم ولكنه قد أعف نفسه من ذلك ابتغاء ماعند الله تعالى ، ولشدة خوفه من الله تعالى خشي أن يكون ذلك من الشبهات فحمى نفسه منه .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر عبد الرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر رضي الله عنه ، فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها، فحلبت لك ناقة من مال الله ، فقال: ويحك تسقيني

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٤ .

نارًا ، واستحل ذلك اللبن من بعض الناس ، فقيل هو لك حلال يا أمير المؤمنين ولحمها [1] .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك ، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر ، وهذا الخبر وأمثاله يدل على أن ذكر الآخرة بما فيها من حساب ونعيم أو شقاء قد أخذ بمجامع قلب عمر وملأ عليه تفكيره، حتى أصبح ذلك موجها لسلوكه في هذه الحياة .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر قتادة بن دعامة السدوسي قال: خرج عمر رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود العبدي ، فإذا امرأة برزة [2] على ظهر الطريق، فسلم عليها

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٢ .

(٢) هي المرأة الكهلة التي تبرز للقوم يتحدثون معها .

عمر ﷺ فردت عليه السلام – أو سلمت عليه فرد عليها السلام – فقالت: هيها ياعمر[1] عهدتك ياعمر وأنت تسمى عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان،فلم تذهب الأيام حتى سمِّيت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سمِّيت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي الفوت ، فبكى عمر ﷺ ، فقال الجارود : هيه[2] فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته !! فقال عمر ﷺ : أما تعرف هذه ؟ هذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله عز وجل قولها من فوق سماواته ، فعمر أحرى أن يسمع لها[3] .

---

(١) أي تنبَّه وتفطَّن .

(٢) أي تنبَّهي .

(٣) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٣ – ٧٧٤ ، وقد نزل في خولة بنت حكيم رضي الله عنها قول الله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة / ١] وقوله "امرأة عبادة بن الصامت " وهم من الراوي عن قتادة وهو خليد بن دعيج ، والصواب أنها امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة، أفاد ذلك الحافظ أبو عمر ابن عبد البَرّ – الاستيعاب ٤/ ٢٨٤ .

ففي هذا الخبر موقفان :

أولا : أنه مثل من الجرأة التي اتصف بها الصحابة رضي الله عنهم رجالا ونساء في مخاطبة الولاة والتعبير عما في نفوسهم من إرادة الإصلاح ، وقد تربوا على هذه الجرأة في ظل الإسلام، حيث جاءت الأوامر فيه بلزوم التناصح بين الراعي والرعية كما جاء في قول رسول الله ﷺ « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » أخرجه الإمام مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه [1] .

ثانيًا : موقف لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي تمثل في الخشية من الله تعالى والتواضع لأفراد رعيته ، وهذا دليل على قوة إيمانه وتعظيمه لله عز وجل وشدة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة ، ومن كان كذلك فإنه ينسى نفسه ودنياه ويتوجه سلوكه إلى محاولة بلوغ الهدف الإسلامي الأعلى ، وهو الظفر برضوان الله سبحانه ونعيم الجنة .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ٥٥ ، الإيمان (ص٧٤) .

ومن ذلك ما أخرجه أيضًا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من حديث معيقب قال: أرسل إليَّ عمر رضي الله عنه مع الظهيرة فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصما ، فقلت: على رسلك يا أمير المؤمنين فإنك تأخذ أمرك بالهوينَى ، وإذا بعاصم في زاوية ، فقال – يعني أمير المؤمنين – : أتدري ماصنع هذا ؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ومتاعا وسيفا محلَّى ، فقال : مافعلت ، إنما قدمت على أناس من قومي فأعطوني هذا، فقال: خذه يامعيقب فاجعله في بيت المال ، فجعلته فلما كان العشي حُدِّث القوم شأنه ، وانطلق عاصم فطلب إلى أناس في السيف ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، السيف أماله ؟ فإنه ليس له سيف قال: يامعيقب انزع حليته وأعطه النصل ، قال: فما أصنع به ؟ قال : ماشئت ، فأخذ النصل [1] .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٠ – ٧٠١ ، وقوله " أماله " يعني : أليس له الحق في أن يملك سيفًا ؟

فهذا مثل من التحري في المال الذي يكتسبه الإنسان عن طريق جاهه ومنصبه ، فحيث شعر أمير المؤمنين عمر بأن ابنه عاصما قد اكتسب هذا المال لكونه ابن أمير المؤمنين تحرج من إبقاء ذلك المال عنده لكونه اكتسبه بغير جهده الخاص فدخل ذلك في مجال الشبهات.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «إذا استأذنت أحدكم امرأته أن تأتي المسجد فلايمنعها ، قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصلي في المسجد فقال لها : إنك لتعلمين ماأحب، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني ، قال: فطُعِن عمر وإنها لفي المسجد »[1] .

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني وذكر أن المرأة هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل[2] .

ففي هذا الخبر مثل من تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٧ .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣/ ١٤٨ ، رقم ٥١١١ .

لأمور الشريعة ، ووقوفه عند كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، حيث قدَّم تنفيذ ذلك على ماتحبه نفسه .

وفي هذا المعنى ما أخرجه محمد بن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت : إنه نائم ، فقال : يا أسلم كيف تجدون عمر ؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم ، فقال بلال : لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه .

وأخرج أيضا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مارأيت عمر غضب قط فذُكِر الله عنده أو خُوِّف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد [1] .

ذلك لأن غضبه لله تعالى ، وأمره كله له سبحانه فإذا ذُكِّر به وخوف منه أو تُليتْ عليه آياته غلبت عليه خشيته جل وعلا ، فأمسك عما كان يريد الإقدام عليه من تأديب ونحوه .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٩ .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يوما – وخرجت معه حتى دخل حائطًا [1] فسمعته – يقول – وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط- : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بَخٍ ، والله لتتقين الله بُنَيَّ الخطاب أو ليعذبنك [2] .

فهذا نوع من محاسبة النفس وتذكيرها بيوم الحساب حتى لاتغتر بالجاه الدنيوي ، فإن الناس يوم القيامة يبعثون مجردين من أموالهم وجاههم ، ولايرافقهم إلا أعمالهم الصالحة .

وأخرج ابن عساكر أيضًا من خبر أبي مسلم الأزدي ، أنه صلى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو حدثه من صلى مع عمر بن الخطاب المغرب ، فمسَّى بها – أو شغله بعض الأمر – حتى طلع

---

(١) أي بستانا .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٠ .

نجهان ، فلما فرغ من صلاته تلك أعتق رقبتين [1] .

فهذا الخبر يبين لنا شدة تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للصلاة وعظم خشيته من الله تعالى ، حيث كفَّر عن تأخير صلاة المغرب عن أول وقتها بعتق مملوكَين .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث مسروق بن الأجدع قال: دخل عبد الرحمن- يعني ابن عوف رضي الله عنه – على أم سلمة رضي الله عنها فقالت : سمعت النبي ﷺ يقول : إن من أصحابي لمن لايراني بعد أن أموت أبدا ، قال: فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورًا حتى دخل على عمر رضي الله عنه فقال : اسمع ماتقول أمك، فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها، ثم قال: أنشدك بالله أمنهم أنا ؟ فقالت : لا ولن أبرئ بعدك أحدا [2] .

فهذا مثال على ماكان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١١ .

(٢) مسند أحمد ٦/ ٣١٢ .

الخشية لله تعالى ، فهذان الصحابيان الجليلان كلاهما ممن بشرهم النبي ﷺ بالجنة ، ومع ذلك فزعا لما سمعا هذا الحديث، ولم يكتف أمير المؤمنين عمر بذلك ، بل ناشد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بأن تخبره إذا كان ممن ينطبق عليه هذا الوعيد ، وهذا يدل على قوة الدين وعظمة الله تعالى في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر مزيدة بن قعنب الرهاوي قال: كنا عند عمر بن الخطاب– رضي الله عنه – إذ جاءه قوم فقالوا : إن لنا إماما يصلي بنا العصر فإذا صلى صلاته تغنى بأبيات ، فقال عمر : قوموا بنا إليه، فاستخرجه عمر من منـزله فقال: إنه بلغني أنك تقول أبياتا إذا قضيت صلاتك فأنشدنيها ، فإن كانت حسنة قلتها معك ، وإن كانت قبيحة نهيتك عنها، فقال الرجل :

وفؤادي كلما نبهته	عاد في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا	في تماديه فقد بَرَّح بي
ياقرين السوء ماهذا الصِّبا	فني العمر كذا باللعب
وشباب بان مني فمضى	قبل أن أقضي منه أربي

ما أُرَجـِّي بعـــــده إلا الفنا ضيَّق الشـيب عليَّ مطلبي

نفسُ لاكنتِ ولاكان الهوى اتقي المولى وخافي وارهبي

فقال عمر : نعم ، نفس لاكنت ولاكان الهوى ، وهو يبكي ويقول : اتقي المولى وخافي وارهبي ، ثم قال عمر : من كان منكم مغنيا فليغنِّ هكذا (1) .

فهذا مثل من رقة قلب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشدة خشيته من الله جل وعلا، حيث بكى لما سمع هذه الأبيات الوعظية .

وفي قوله « فإن كانت حسنة قلتها معك " دلالة على تواضعه وحسن أسلوبه في دراسة القضايا ، واحترامه آراء الآخرين .

وفي هذا الخبر دلالة على إقرار الصحابة رضي الله عنهم للأناشيد الإسلامية واستحسانهم لما كان منها يشتمل على الوعظ والتذكير بالآخرة ، مع أن ذلك الإمام كان يتغنى بتلك الأبيات الشعرية في المسجد وبعد صلاة العصر ،فجواز ذلك خارج المسجد من باب أولى.

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٢ .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة النميري من خبر عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : أنا آخركم عهدًا بعمر رضي الله عنه ، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له : ضع خدي بالأرض ، فقال : هل حجري والأرض إلا سواء ؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك – في الثانية والثالثة – ثم شبك رجليه فسمعته يقول : ويل لي وويل لأمي إن لم يغفر الله لي ، حتى فاضت نفسه (١) .

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى ، حتى كان آخر كلامه الدعاء على نفسه بالويل إن لم يغفر الله جل وعلا له ، مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولكن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، وإصراره على أن يضع ابنه خده على الأرض من باب إذلال النفس في سبيل تعظيم الله عز وجل ، ليكون ذلك أقرب لاستجابة دعائه، وهذه صورة تبين لنا قوة حضور

(١) تاريخ المدينة المنورة ص ٩١٩ .

قلبه مع الله جل وعلا .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس التميمي قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لايحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف وماحج به واعتمر عليه من الظهر [1] ،وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا رجل من المسلمين [2] .

وهكذا كانت مخصصات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من بيت مال المسلمين مايكفي للقوت الضروري والكسوة الضرورية كأحد أوساط الناس ، ومازاد عن ذلك فإن عمر يتورع عنه، ولو أن رجلا استأجر رجلا على أن يعمل له بطعامه وكسوته لم يقبل بذلك إلا عند الضرورة القصوى ، ولكن عمر فرض على نفسه ذلك تورعا منه.

---

(١) أي الإبل .

(٢) تاريخ دمشق / ٢٧٠ .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الكرابيسي أخرجه بسند صحيح [1] .

ومن أمثلة خشيته من الله تعالى ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال :

ياعمر الخير جُزيتَ الجنة   جَـهِّز بُنـيَّاتي وأمُهنَّه

أقسـم بالله لتفعلـنه

قال : فإن لم أفعل ماذا يكون يا أعرابي ؟ قال :

أقسـم أني سوف أمضينه

قال : فإن مضيت ماذا يكون يا أعرابي ؟ قال :

والله عــــن حالي لتسألنَّه   ثَمَّ تكون المسألات ثمَّه

والواقف المسؤول بينهنَّه   إمــــا إلى نار وإما جنه

قال : فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال : ياغلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره،والله ما أملك قميصا غيره [2] .

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٦١ .

(٢) تاريخ بغداد ٤/ ٣١٢ .

وهكذا بكى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بكاء شديدًا تأثرًا بشعر ذلك الأعرابي الذي ذكَّره بموقف الحساب يوم القيامة ، مع أنه لايذكر أنه ظلم أحدا من الناس ، ولكنه لعظم خشيته وشدة خوفه من الله تعالى تنهمر دموعه أمام كل من يذكِّره بيوم القيامة .

ومن أمثلة ورعه رضي الله عنه ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر إياس بن سلمة عن أبيه [1] قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدِّرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط عن الطريق ، فلما كان في العام المقبل لقيني فقال : ياسلمة تريد الحج؟ فقلت : نعم ، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منـزله فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك ، قلت : يا أمير المؤمنين ماذكرتها ، قال: وأنا مانسيتها [2] .

---

(١) أبوه هو سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي رضي الله عنه .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٤ .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث شعر بأنه قد ضرب ذلك الرجل وهو غير مستحق للضرب ، فعوضه بذلك المال إبراء لذمته ، وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ كما ورد الخبر عنه بذلك في يوم حنين وغيره .

من مواقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

لقد اشتهر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه من أهل الغنى والثروة ، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا .

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث حميد بن نعيم : أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دُعيا إلى طعام ، فلمَّا خرجا قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعامًا لوددنا أنا لم نشهده ، قال: لِمَ قال : إني أخاف أن يكون صُنِع مباهاة [1] .

فهذا فقه من عثمان بن عفان ﷺ بمجالات السخاء الإسلامي ، فالسخاء في الإسلام لايكون بالتفاخر بالكرم والتباهي بنوع الطعام أو كثرته ، وإنما ببذل المال من غير إسراف ولاخيلاء مع شكر المنعم جل وعلا والتواضع للناس ، وهذه النظرة من عثمان تُعدُّ من التزهيد بالجاه الدنيوي ، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين في ذلك .

---

(١) الزهد/ ١٢٦ .

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال : أخبَرني الهمْداني أنه رأى عثمان بن عفان رحمة الله عليه على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة [1] .

وكذلك ماأخرجه من حديث الهمداني قال : رأيت عثمان نائما في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[2] .

كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت[3] .

فهذه أمثلة جليلة من زهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وحينما يكون الزاهد متوسط الحال في المعيشة فإن زهده لايلفت النظر كثيرًا ولايثير العجَب ، ولكن حينما يكون غنيا فإن زهده يكون

---

(١) الزهد/ ١٢٧ .

(٢) الزهد/ ١٢٧ .

(٣) الزهد/ ١٢٩ .

مدهشا للمتأملين وعبرة للمعتبرين ، ذلك لأن كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات ، فلابد ليكون الغني زاهدا من قوة بالغة تصرفه عن ذلك وتضخِّم في عينه النظر للآخرة وتقلل في عينه النظر إلى الدنيا ، وهكذا كان عثمان رضي الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قوة إيمانه شهوته وهواه فكان من أعظم الزاهدين ، وضرب من نفسه مثلا لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغِنَى والزهد في الدنيا .

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

يُعدُّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أئمة الزاهدين، ومن أخباره في الزهد ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الحافظ أبي نعيم الأصبهاني قال: وسمعت سفيان يقول : إذا جاءك عن علي رضي الله عنه شيء أُثبت لك فخذ به ، مابنى عليّ لبنة ولاقصبة على قصبة ، ولقد كان يجاء بحبوبه في جراب من المدينة [1] .

في هذا الخبر يربط العالم الكبير سفيان بن سعيد الثوري بين الزهد في الدنيا والعلم المتعلق بذلك، فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه كان من أئمة الزهد قولا وعملا ، فأقواله في الزهد يكون لها الأثر الكبير لأنه كان طوال أيام خلافته زاهدا يعيش على رَيع مال له في المدينة ولم يبن له قصرا يناسب مركزه الاجتماعي ، فلذلك كان بحقٍّ أزهد الناس في عصره كما قال عنه عمر بن العزيز رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في

---

(١) تاريخ دمشق / ٤٨٢ .

الزهد والورع ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال : الله أكبر ! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال :

هـذا جَنَايَ خيارُه فـيه　　　وكـلُّ جَانٍ يـده إلى فيه

يا ابن النباج عليَّ بأشياع الكوفة ، قال : فنودي في الناس فأعطى جميع مافي بيت مال المسلمين وهو يقول : ياصفراء ويابيضاء غُرِّي غَيْرِي ، هيا ، وهيا ، حتى مابقي منه دينار ولادرهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي قال : كان عليّ يكنس بيت المال ويصلي فيه ويتَّخذه مسجدًا رجاء أن يشهد له يوم القيامة [1] .

ففي هذا مثل بليغ في الترفُّع عن متاع الدنيا الزائل ، فبيت المال

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٠ – ٨١ ،تاريخ الإسلام للذهبي/ الخلفاء الراشدين/ ٦٤٣.

قد امتلأ من الذهب والفضة، ولاينظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظرة إعجاب وغرور، بل كان جوابه حينما أبلغه المسؤول المالي عن ذلك أن قال : الله أكبر ! فإذا كان بعض الناس يكْبِرون الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء ، ومادام المسلم يشعر حقا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلمًا لما هو أصغر !!

إنه فقه عظيم من علي رضي الله عنه حينما تذكَّر هوان الدنيا وحقارتها فكبَّر الله تعالى ، ولسان حاله يؤنِّب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء .

وإنه لميزان دقيق يحسه المؤمن الذي نَوَّرَ الله سبحانه بصيرته ، فكلما كان الله تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبه كانت الدنيا ومافيها أهون شيء عليه ، وأصبح يُسَخِّر المال الحلال في طاعة الله جل وعلا ، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى .

ونجد عليا رضي الله عنه يُحَلِّق في آفاق العظمة وهو يخاطب الدنيا بقوله : ياصفراء يابيضاء غُرِّي غيري .. مما يدل على الوجدان

الحيّ والحسّ المرهف الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويراوغ خصمه..وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجموح العواطف، ويُحَكِّم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمنها المحدود في شقائها ونعيمها ، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها .

ونجده ﷺ يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين لتكونا شاهدتين له يوم القيامة بأنه قد عدل في حكمه واستقام في أمره.

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجدًا رمزًا لعلو الآخرة على الدنيا ، وهو مكمِّل للسلوك العالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة .

ومن مواقف علي ﷺ في الزهد والورع مارواه هارون بن عنترة عن أبيه قال:دخلت على علي بن أبي طالب بالخَوْرنَق[1] وهو يرعد[2]

---

(١) موضع بالكوفة .

(٢) يعني من شدة البرد .

تحت سَمَلِ قطيفة [1] فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ماتصنع ، فقال : والله ماأرزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منـزلي – أو قال – من المدينة [2] .

وهنا نتساءل فنقول : ما الذي حمل أمير المؤمنين عليّا على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئًا ؟!

ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقا فيها ؟

إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة التامة على تحصيله.

إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربي فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل ، والتنافس على نعيم الآخرة الخالد ، فلقد عاش رسول الله ﷺ

---

(١) يعني قطيفة قديمة .

(٢) حلية الأولياء ١/ ٨٢ ، صفة الصفوة ١/ ٣١٦ ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء ٦٤٤.

عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأغنى الأغنياء .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمرَ بن عبد الله الجهني قال : رأيت عليًّا عليه السلام متَّزرًا بإزار مرتديًا برداء ومعه الدِّرَّة [1] كأنه أعرابي بدوي ، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم ، وأن التاجر عرفه ، قال: فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره، فأخذ أبوه درهمًا ثم جاء به فقال : هذا الدرهم يا أمير المؤمنين ، قال: ما شأن هذا الدرهم ؟ قال: كان ثمن القميص درهمين ، فقال: باعني رضاي وأخذ رضاه [2] .

فهذا مثل في الزهد من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله

---

(١) الدرة بكسر الدال وتشديدها العصا .

(٢) الزهد/ ١٣٠ .

عنه ، فلقد كان مظهره في لباسه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه ، وحينما اشترى له ثوبًا اختار نوعًا متواضعًا رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسؤول في العالم ، حيث كان خليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا .

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع من الشراء ممن يعرفونه حتى لايراعوه في الثمن لمنصبه ، فهو لايريد أن يستثمر منصبه الكبير لمصالحه الخاصة ، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتقوى ، فالخلافة عنده وعند أمثاله عمل صالح ، والخليفة إذا صاحبه العدل كان أول السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم القيامة ، فهو لايريد أن يدنس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مَجْلبةٍ للوزر بدلاً من الأجر ، فكان بهذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده .

ومن أخباره رضي الله عنه في الزهد ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من حديث عمر بن قيس قال: قيل لعلي عليه السلام : لِمَ ترقع

قميصك ؟ قال: يخشع القلب ويقتدي به المؤمن [1].

فهذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصه على تربية المسلمين على حياة الزهد والتقشف، فقد لاحظ في لبس الثوب المرقوع ملحظين : الأول أنه وسيلة إلى خشوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسباب العجب والكبرياء ، والثاني أنه يُعدُّ بذلك قدوة للمسلمين ، فإذا رآه الناس – وهو في أعلى منصب – يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويبتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن ، وَيَتَقوَّى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد .

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد من خبر عبد الله بن زُرَير الغافقي قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه – قال حسن [2]: يوم

---

(١) الزهد / ١٣١ ، وانظر تاريخ الإسلام / الخلفاء / ٦٤٧ .

(٢) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد .

الأضحى– فقرب إلينا خَزِيرة [1]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط – يعني الوزّ – فإن الله عز وجل قد أكثر الخير ! فقال: يابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لايحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس[2] .

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلا عاليا في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب ، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ماشاء من الأموال مما لايلفت النظر إليه،حيث يُؤَمِّن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين، ولكنه رضي بخشونة العيش إيثارًا للآجلة على العاجلة ، واحتياطًا لأمر دينه ، وإبرازًا للقدوة الصالحة ، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء للفقراء ليصبروا

---

(١) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق .

(٢) مسند أحمد ١/ ٧٨ .

ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره ، ووعظًا للأغنياء ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف .

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم ستعود في النهاية إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء المضاعف في الآخرة ، وبالتالي يرتفع الفقراء درجات نحو الوسط ، وينـزل الأغنياء درجات نحو الوسط ، ليعيش الجميع حياة متقاربة في الأمور المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن .

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده رضي الله عنهم.

من مواقف أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما

من أخبار الصحابة رضي الله عنهم في الزهد مارُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة رضي الله عنه : اذهب بنا إلى منـزلك ، قال: وماتصنع عندي؟ ماتريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ، قال: فدخل فلم ير شيئًا ، قال: أين متاعك ؟ لا أرى إلا لَبَدًا وصحفة وشنّـًا [1] وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة [2] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما يُبْلُغك المقيل ، قال عمر : غيَّرَتْنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة .

ذكره الإمام الذهبي وقال : وهذا والله هو الزهد الخالص لا زهد من كان فقيرًا معدما [3] .

---

(١) اللَّبد السرج والشنّ القربة القديمة .

(٢) يعني السلة .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ١٧ .

فهذا مثل بليغ في الزهد يقدمه أحد عظماء الإسلام أمام أحد عظمائه .

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حينما قَدِم إلى الشام قد جعل من أهدافه المهمة أن يزور بيت أمير الشام أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لِيُثْلج صدره برؤية مظهر من مظاهر الزهد النادرة ، ولكن أبا عبيدة كان يدرك ما ستؤول إليه حال عمر حينما يرى بيته فتلكأ قليلا في الذهاب به ، ولم يتمالك عمر نفسه حينما رأى ذلك البيت الذي كأنما هُجر من دهر فجاشت عيناه بالدموع .

ويَحْدُث مايدهش المتأمل حيث يقول أبو الزهد ومقنِّن مناهجه في عصره : «غيَّرتنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » .

هل حقا غيَّرت الدنيا عمر ؟!

إنه الحاكم العظيم الذي ساس دولته على الزهد وكان قدوة عليا للزاهدين !

ولكنه التواضع الكبير من الرجل الكبير !

فما أعظم هذا الحوار بين هذين الرجلين العظيمين ! وما أعظم

ماقدَّماه لأمة الإسلام من تضحية وفداء !!

ومن ذلك ماذكره ابن الجوزي عن مالك الداري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح.ثم تَلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر مايصنع.

فذهب الغلام قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، قال: وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالَي ياجارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر مايصنع ، فذهب بها إليه قال : يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالي ياجارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، فاطَّلَعَت امرأته فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فَدَحَا بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك ، فقال:

إنهم إخوة بعضهم من بعض [1] .

ومن هذه الأخبار تبين لنا ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ، ولاشك أن من وقع في يده مال هو بحاجته ففرقه من ساعته .. لاشك أنه قد تجرد قلبه من الميل إلى الدنيا ، ولايكون ذلك إلا بدافع قوي يهيمن على النفس فيصرف اتجاهها إلى مايخالف هواها ، هذا الدافع هو ماذكره الله تعالى بقوله في مدح الصحابة رضي الله عنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح :٢٩] ومايزال عباد الله المخلصون يقاومون هوى نفوسهم حتى يكون هواهم خالصا فيما يحبه الله تعالى ، ولذلك فإنهم يشتاقون إلى لقائه جل وعلا، ولايكرهون الموت لأنهم قد عاشوا لما بعد الموت، ولم تمثل الحياة الدنيا في شعورهم إلا كرحلة سفر ، قد تم فيها الإعداد لما بعدها من الإقامة .

وعلى ضد ذلك الذين ذكرهم النبي ﷺ في آخر الزمان بقوله :

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٩١ .

«يوشك الأمم أن تَدَاعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومِنْ قِلَّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، ولينـزعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفَنَّ الله في قلوبكم الوهْن ، فقال قائل : يارسول الله وما الوَهْن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت.أخرجه الإمامان أبو داود وأحمد [1] .

(١) سنن أبي داود ، رقم ٤٢٩٧ ، الملاحم ٤/ ٤٨٣ ، مسند أحمد ٢/ ٣٥٩ .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

أخرج الحافظ ابن كثير في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره أن سعدا قال : يارسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي ، فقال : إنه لايستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه ، فقال : يارسول الله ادع الله أن يطيِّب مطعمي ، فدعا له ، قالوا : فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أُخذت [1] .

ففي هذا الخبر بيان لاهتمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالورع واستقامته على ذلك، وكونه يهتم بسنبلة وقعت في أرضه دليل على قوة ورعه ، فإن كثيرًا من الناس لايلتفتون لمثل هذا، وإذا كان قد تورع عن هذا الشيء الحقير فإن تورعه عن الأمور الكبيرة الواضحة في الحرام والشبهات من باب أولى ، وهذا الحديث صريح في أن أهم أسباب إجابة الدعاء الورع عن الحرام والشبهات ، وقد رُويت

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦ .

أحاديث أخرى في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون :٥١] ، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٧٢] قال : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك !» [١] .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٠١٥ ، الزكاة (ص٧٠٣) .

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

من أخباره رضي الله عنه في باب الخشية من الله تعالى ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من خبر عمرو بن ميمون قال : كان عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه – تأتي عليه السنة لايحدِّث عن رسول الله ﷺ ، فحدَّث ذات يوم عن رسول الله بحديث فَعَلَتْه كآبة ، وجعل العرق يتحادر على جبهته ويقول : نحوَ هذا أو قريبا من هذا .

قال الحاكم:هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي [1] .

فهذا مثل من شدة الوجل والخشية من الله تعالى ، واهتمامٌ بالغ من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأداء ماسمع من النبي ﷺ من غير أن يغير منه حرفا،وهذا النص يعدُّ توثيقا لجميع مرويات ابن مسعود إذا صحت عنه،وعلى شاكلته كان علماء الصحابة رضي الله عنهم ، لأنهم يعلمون جميعًا أن هذا الأمر أداءٌ لدين الله تعالى ،وأنَّ تحمُّل ذلك العلم وأداءَه مسؤولية عظيمة .

---

(١) المستدرك ٣/ ٣١٤ .

من مواقف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

ذكر الإمام ابن القيم من رواية ابن حبان بإسناده عن إبراهيم الأشتر، عن أبيه ، عن أم ذر ، قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاةُ ، بكيتُ، فقال ما يُبكيك ؟ فقلت : ما لي لا أبكي ،وأنت تموتُ بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوبٌ يسعُك كفَنًا ، ولا يدان لي في تغييبك ؟ قال : أبشري ولا تبكي ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم : «ليموتن رجل بفلاةٍ من الأرض يشهده عصابةٌ من المسلمين» وليس أحدٌ من أولئك النفر إلا وقد مات في قرية وجماعة ، فأنا ذلك الرجل، فو الله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، فأبصري الطريق . فقُلت : أنَّى وقد ذهب الحاجُّ ، وتقطعت الطُّرُقُ ؟ !فقال : اذهبي فتبصري . قالت: فكنت أُسْندُ إلى الكَثِيبِ أتبصر ، ثم أرجع فأمرِّضه ، فبينا أنا وهو كذلك إذ أنا برجال على رحالهم كأنهم الرَّخَمُ تَخُبُّ بهم رواحِلُهم، قالت : فأشرت إليهم،فأسرعوا إليَّ حتى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمة الله! مالك ؟ قلت : امرؤ من المسلمين يُموت تُكفنونه . قالوا : ومن هو ؟ قلت : أبو ذر . قالوا : صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت: نعم،

ففدُّوْه بآبائهم وأماتهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم: أبشروا فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتنَّ رجلٌ بفلاةٍ من الأرض يشهده عصابةٌ من المؤمنين » وليس من أولئك النفر إلا وقد هلك في جماعة . والله ما كذبتُ ، إنه لو كان عندي ثوبٌ يسعني كفنًا لي أو لامرأتي ، لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها ، فإني أنشدكم الله أن لا يكفنني رجل منكم كان أميرًا ، أو عريفًا ، أو بريدًا، أو نقيبًا ، وليس من أولئك وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار قال : أنا يا عمُّ ، أُكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين من عيبتي من غزل أمي . قال : أنت فكفِّني ، فكفنه الأنصاري ، وقاموا عليه ، ودفنوه في نفر كلهم يمان [1] (يعني من أهل اليمن) .

فهذا مثل من الورع الشديد الذي كان يتصف به أبو ذر الغفاري

---

(١) زاد المعاد ٣- ٥٣٤/٥٣٦ ، وقال المحقق أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٢٦٠) وسنده حسن ، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام أحمد وقال : ورجاله رجال الصحيح- مجمع الزوائد ٩-٣٣١/ ٣٣٢ .

رضي الله عنه ، حيث تحرَّج من أن يكفن بكفن يخشى أن يكون من مصدر فيه شبهة ؛ فقد رفض أن يكفن بكفن من رجل عمل مع الدولة في أي عمل ، ذلك لأنه يرى أن بعض مصادر أموال الدولة فيها شبهة ، وهو يريد أن يطبق الورع على نفسه حتى بعد الموت كما طبقه في حياته .

وفي هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ ، حيث أخبر بأمر مستقبل فوقع كما أخبر به .

من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه

من ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامه الباهلي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى باهلة ، فأتيتهم وهم على الطعام ، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: تعال فكل ، فقلت : إني جئتكم لأنهاكم عن هذا الطعام [1]،وأنا رسول رسول الله ﷺ أتيتكم لتؤمنوا به ، فكذبوني وزبروني [2] ، وأنا جائع ظمآن ، فنمت فأُتِيت في منامي بشربة لبن فشربت ورويت وعظم بطني ، قال القوم : أتاكم رجل من أشرافكم وسَراتكم فرددتموه ، اذهبوا إليه وأطعموه من الطعام والشراب مايشتهي ، فأتوني بالطعام والشراب ، فقلت : لاحاجة لي في طعامكم وشرابكم ، فإن الله أطعمني وسقاني ، فانظروا إلى الحال التي أنا عليها،فنظروا فأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال:رواه الطبراني بإسنادين وإسناد

---

(١) جاء في إحدى الروايات أنه كان طعامهم الدم ، وكانوا يستخرجونه من البهائم ويجعلونه في طعامهم، فلذلك لم يأكل أبو أمامة من طعامهم لأنه محرم .

(٢) أي انتهروه .

الأولى حسن [1] .

وهكذا أظهر هذا الصحابي الجليل عزة الإسلام فلم يدار المشركين في اقتراف شيء مما نهى الله تعالى عنه ، فكان أهلا لأن تجري على يديه كرامة الله جل وعلا حيث أطعمه وسقاه، ثم هدى على يديه قبيلته بأكملها ، وتلك من عاجل بشرى المؤمن في الحياة الدنيا ، مع ما ادخره الله تعالى له في الآخرة من الثواب العظيم .

وهذا مثل رائع في باب الورع والتقوى ، وبيان واضح لأثر ذلك في نجاح الداعية ، كما هو ظاهر في استجابة قوم أبي أمامة ، وقد كانوا كذبوه أولاً وزجروه ، ثم أكبروا فيه الامتناع عن الطعام والشراب تَدَيُّنًا مع شدة احتياجه إليه ، فلما رأوا ما مَنَّ الله به عليه من تلك الكرامة العظيمة خضعوا للحق فأسلموا .

ومن ذلك ماروي عن مولاة لأبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قالت : كان أبو أمامة رجلا يحب الصدقة ويجمع لها من بين الدينار

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ٢٨٦ ، رقم ٨٠٩٩ ، مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٧ .

والدرهم والفلوس ، وما يأكل ، حتى البصلة ونحوها، ولايقف به سائل إلا أعطاه ماتهيأ له حتى يضع في يد أحدهم البصلة .

قالت : فأصبحنا ذات يوم وليس في بيته شيء من الطعام لذلك – يعني لذلك الغرض وهو الصدقة – ولا لنا ، وليس عنده إلا ثلاثة دنانير ، فوقف به سائل فأعطاه دينارًا ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا .

قالت : فغضبت وقلت : لم يَبْقَ لنا شيء ! فاستلقى على فراشه وأغلقت عليه باب البيت حتى أذن المؤذن للظهر ، فجئته فأيقظته فراح إلى مسجده صائمًا ، فرققت عليه فاستقرضت ما اشتريت به عشاء فهيأت سراجا وعشاء ، ووضعت مائدة ودنوت من فراشه لأمهده له ، فرفعت المرفقة – يعني المخدة – فإذا بذهب ، فقلت في نفسي ، ماصنع إلا ثقة بما جاء به ، قالت: فعددتها فإذا ثلاثمائة دينار ، فتركتها على حالها حتى أَنصرِفَ على العشاء .

قالت : فلما دخل ورأى ماهيأت له حمد الله تعالى وتبسم في وجهي ، وقال: هذا خير من غيره ، فجلس فتعشى ، فقلت : يغفر الله

لك ، جئتَ بها جئت به ، ثم وضعتَه بموضع مضيعة ! فقال: وماذاك؟ فقلت : ماجئت به من الدنانير ، ورفعت المرفقة عنها ففزع لِمَا رأى تحتها، وقال: ويحك ماهذا ؟ فقلت : لا علم لي به إلا أني وجدته على ماترى ، قالت:فكثر فزعه رضي الله عنه.

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة والذهبي في تاريخه،وأشار إليه في سير أعلام النبلاء وقال: لأبِي أمامة كرامة باهرة جزع هو منها [1] .

وإن مارأيناه في هذا الخبر شيء عجيب ، فَلأَنْ يتصدق المسلم بمازاد عن حاجته فهذا ظاهر، ولـه أمثلة كثيرة من عمل الصالحين ، لكن أن يتصدق بثمن قوته الضروري فإن هذا نادر المثال، وإنما يدل على إيمان قوي وثقة بالغة بما عند الله تعالى من الخير في الدنيا والآخرة، فأما الجزاء الأخروي فأدلته ظاهرة معلومة ، وأما الجزاء الدنيوي ففي مثل قول رسول الله ﷺ «مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينـزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٤ ، تاريخ الإسلام ٣/ ٣١٥ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٢ .

ممسكا تلفا»[1] وقد ضاعف الله تعالى لأبي أمامة الخلف بمائة ضعف ، حيث رُزِق بثلاثمائة دينار لايعرف مصدرها ، بدلا من الثلاثة التي تصدق بها .

والمشهد العجيب الثاني أنه فزع لما رأى تلك الدنانير ، وزاد فزعه يوم أن جهل مصدرها، في مقام يُتوقع فيه الفرح والسرور ، وماذاك إلا أنه وأمثاله ينظرون إلى الدنيا نظرة وجل وفزع خوفًا من الوقوع في شيء من فتنتها على حسب عرف السابقين بالخيرات ، وإن كان ذلك يُعدُّ أمرًا معتادًا عند غيرهم ، أما شدة فزعه حينما جهل مصدرها فهو مبني على شدة خشيته من الله تعالى أن يكون ذلك استدراجًا ، وأن يداخل نفسه شيء من الإعجاب بالعمل الصالح ، ولكن أنَّى يصدر ذلك ممن يحوِّلون مشاهد السرور والفرح إلى مشاهد الخوف والفزع !

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٤٢ ، الزكاة (٣/ ٣٠٤) ، صحيح مسلم ، الزكاة رقم ٥٧ .

من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه

من الذين وردت عنهم الأخبار في الخشية والورع المقداد بن عمرو رضي الله عنه ، من ذلك ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث المقداد بن عمرو ﵁ قال : بعثني رسول الله ﷺ مَبْعَثا، فلما رجعت قال: كيف تجد نفسك ؟ قلت: مازلت حتى ظننت أنَّ من معي خَوَلي [1]، وايم الله لا أعمل على رجلين بعدها ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [2].

فهذا مثال للورع والشدة في محاسبة النفس ، فحينما أحس المقداد رضي الله عنه بأن نفسه قد تعاظمت بعض الشيء من أثر احترام الناس وتقديرهم له نفرَ من تلك الولاية التي خاف على دينه منها وآلي على نفسه أن لايتولى عملا في حياته .

وإن في هذا الخبر درسًا حيًّا للمسؤولين الذين يخدعون

---

(١) أي خدم لي .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٤٩ – ٣٥٠ .

بمناصبهم فتتغير حالهم بعد توليهم المسؤولية ، ويداخلهم شيء من الغرور والكبرياء ، وربما تلا ذلك شيء من ظلم الناس وتأخير حقوقهم ، فليَعْلَم هؤلاء أنهم قد اختاروا الدنيا على الآخرة وآثروا حظ أنفسهم على ابتغاء رضوان الله تعالى ، ولئن خُيِّل إليهم أنهم قد كسبوا شيئا من الجاه الدنيوي فلقد خسروا كثيرًا حينما لم يضعوا في حسابهم العمل لما بعد الموت .

من مواقف خبَّاب بن الأرَتِّ رضي الله عنه

مما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ماروي عن خبَّاب بن الأرَتِّ رضي الله عنه وذلك فيما ذكره ابن الجوزي عن طارق بن شهاب قال: جاء خبَّابًا نَفَرٌ من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله إخوانك تَقْدُم عليهم غدا ، فبكى وقال : أمَا إنه ليس بي جزع ولكن ذكرتموني أقوامًا وسمَّيتم لي إخوانا ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ماتذكرون من تلك الأعمال ماأوتينا بعدهم [1] .

لقد فزع خباب رضي الله عنه وبكى من النعمة التي أوتيها مع أنها من خالص الحلال خشية أن يكون قد عُجِّل له بعض ثواب عمله الصالح ، وفي هذا دلالة على شدة خشيته من الله تعالى، وعظمة استحضاره للآخرة ، حيث يخشى أن ينتقص أجره بما تقدم من نعمة في الدنيا ، وقد جرى ذلك من صحابة آخرين رضي الله عنهم ، وهذا

---

(١) صفوة الصفوة ١/ ٤٢٧ .

دليل على قوة إيمانهم وحرصهم الشديد على السلامة في الآخرة ورفعة الدرجات .

وإذا كان خباب قد فزع من تلك النعمة الحلال فكيف بمن يتقلَّبون في أنواعٍ من متاع الدنيا المكوَّن من كسب حرام أو مال مشتبه؟!

من مواقف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

من ذلك ما أخرجه الحاكم من حديث أبي عمرو ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها: أن دُرْجًا [1] قَدِمَ إلى عمر من العراق وفيه جوهر ، فقال لأصحابه : تدرون ماثمنه ؟ قالوا : لا ، ولَمْ يدروا كيف يقسمونه ، فقال : تأذنون أن أبعث به إلى عائشة لِحُبِّ رسول الله ﷺ إياها ؟ فقالوا: نعم، فبعث به إليها فَفَتَحتْه فقالت: ماذا فُتِحَ على ابن الخطاب بعد رسول الله ﷺ اللهم لاتبقني لعطيته لقابل .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إذا صح سماع ذكوان أبي عمرو ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : قلت : فيه إرسال [2] .

ففي هذا الخبر موقفان : الأول في تصرف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الحكيم، وذلك حينما ذهب فكره إلى بِرِّ من يحبه رسول

---

(١) هو وعاء الجوهر .

(٢) المستدرك ٤/٨ .

الله ﷺ أكثر من غيره فتذكَّر عائشة رضي الله عنها، فاستأذن الصحابة رضي الله عنهم في إرسال ذلك الجوهر إليها ، وهذا موقف آخر يُذكَر له حيث لم يستبدَّ برأيه مع كونه في عمل خيري ، ومما يُذكَر له أيضًا في هذا التصرف أنه لم يراع في ذلك ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ولم يدارها في ذلك ، بل خَلُص تفكيره لبِرِّ من يحبها رسول الله ﷺ أكثر من غيرها .

والموقف الثاني : فيما أَبْدَتْه عائشة رضي الله عنها من زهد في مظاهر الحياة الدنيا، حيث فزعت من رؤية ذلك الجوهر النفيس وخشيت على نفسها الفتنة به بدلا من أن تفرح به حتى دعت على نفسها بذلك الدعاء ، وهذا مثال على كمال الزهد وقوة الإيمان .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها أنه استأذن لابن عباس رضي الله عنهما على عائشة وهي تموت، وعندها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن ، فقال: هذا ابن عباس يستأذن عليك وهو من خير بنيك، فقالت :دعني من ابن عباس ومن تزكيته ، فقال لها عبد الله بن عبد

الرحمن : إنه قارئ لكتاب الله فقيه في دين الله فأْذَني له فليسلِّم عليك وليودعك ، قالت : فأْذن له إن شئت ، قال: فأذن له فدخل ابن عباس ثم سلم وجلس وقال: أبشري يا أم المؤمنين فو الله مابينك وبين أن يذهب عنك كل أذًى ونصب – أو قال: وصب- وتلقي الأحبة محمدًا ﷺ وحزبه – أو قال : أصحابه – إلا أن تفارق روحك جسدك ، فقالت: وأيضًا ، فقال ابن عباس : كنت أحب أزواج رسول الله إليه ولم يكن يحب إلا طيبا ، وأنزل الله عز وجل براءتك من فوق سبع سماوات، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يُتلى فيه آناء الليل وآناء النهار ، وسقطت قلادتك بالأبواء فاحتبس النبي ﷺ في المنزل والناس معه في ابتغائها – أو قال في طلبها – حتى أصبح القوم على غير ماء فأنزل الله عز وجل ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء :٤٣] فكان في ذلك رخصة للناس عامة في سببك ، فو الله إنك لمباركة، فقالت : دعني يا ابن عباس من هذا فو الله لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا [(١)] .

---

(١) مسند أحمد ١/ ٣٤٩ .

فهذا مثال من خشية الله تعالى ، وقوة استحضار الحياة الآخرة في القلب ، فقد تناست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كل فضائلها التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما والتي لم يذكر، ولم يبرز في فكرها إلا الحساب وأهوال الآخرة ، وهذا دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين .

ومن ذلك ما أخرجه أبو عبد الله البخاري رحمه الله من حديث عوف بن الحارث : أن عائشة رضي الله عنها حُدِّثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، قالت : أهو قال هذا ؟ قالوا : نعم ، قالت : هو لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدا ، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة ، فقالت : لا والله لا أَشَفِّع فيه أبدا ولا أتحنث إلى نذري ، فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث – وهما من بني زهرة – وقال لهما : أَنشُدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإنها لايحل لها أن تنذر قطيعتي ، فأقبل به المسور بن مخرمة وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على

عائشة فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أندخل ؟ قالت: عائشة : ادخلوا ، قالوا : كلنا ، قالت : نعم ، ادخلوا كلكم – ولاتعلم أن معهما ابن الزبير- فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ويبكي ، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا كلمته وقبلت منه ، ويقولان : إن النبي ﷺ قد نهى عما قد علمت من الهجرة، فإنه لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج طفقت تذكّرهما وتبكي ، وتقول : إني نذرت والنذر شديد ، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تبل دموعُها خمارها»[1] .

وقوله « في بيع أو عطاء أعطته عائشة» قال الحافظ ابن حجر : في رواية الأوزاعي :«في دارٍ لها باعتها ، فسخط عبد الله بن الزبير بيع تلك الدار» قوله «لتنتهين عائشة» زاد في رواية الأوزاعي« أما والله

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٠٦٣ ، كتاب الأدب (١٠/ ٤٩١) .

لتنتهين عائشة عن بيع رباعها »قال: وهذا مفسر لما أُبهم في رواية غيره،وكذا ماتقدم في مناقب قريش من طريق عروة قال:«كانت عائشة لاتمسك شيئا ، فما جاءها من رزق الله تصدقت به «وهذا لايخالف الذي هنا لأنه يحتمل أن تكون باعت الرِّباع لتتصدق بثمنها»[1] أ هـ .

ففي هذا الأثر بيانٌ لبعض أخلاق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فمن ذلك اتصافها بالكرم الفياض ، حيث كانت تتصدق بعطائها ، وتبيع من ملكها لتتصدق بثمن ذلك ، ولقد أثار كرمها البالغ ابن أختها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقال ماقال : وكان ميلها الشديد إلى الكرم دافعا لها إلى النذر المذكور الذي أصبحت به محرجة بين الوفاء بالنذر وصلة الرحم.

ومن ذلك اتصافها بالخوف الشديد من الله تعالى ، والورع الدقيق حيث تحرجت من عدم الوفاء بنذرها ، ولما اضطرت إلى ذلك

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٩٣ .

بدافع من تغليب جانب صلة الرحم وعدم الاستمرار في الهجر أعتقت أربعين مملوكا كفارة لنذرها ، ومع ذلك كانت كلما ذكرت ذلك النذر تبكي ، وهذا دليل على قوة الإيمان وعظمة الخشية من الله تعالى .

من مواقف أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها

مما رُوي من زهد أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ما أخرجه ابن سعد من حديث بَرْزَة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أُدْخِلَ عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني ، قالوا: هذا كله لك ، قالت : سبحان الله ! واستترت منه بثوب ، وقالت : صبُّوه واطرحوا عليه ثوبا ، ثم قالت لي : أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان ، من أهل رحمها وأيتامها ، حتى بقَيتْ بقية تحت الثوب ، فقالت لها برزة بنت رافع : غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق ، فقالت : فلكم ماتحت الثوب ، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت : اللهم لايدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا ، فماتت .

قال عبد الوهاب [1] في حديثه : فكانت أولَ أزواج النبي ﷺ لُحُوقًا به [2] .

فهذا موقف رفيع في الزهد والكرم من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ، حيث فزعت من ذلك المال الذي كان عطاءَها السنوي ، وقد استترت من ذلك المال بثوب وكأنما صُوِّرت لها النار متمثِّلةً بذلك المال ، ولم يَقِرَّ لها قرار حتى فرَّقت ذلك المال على أقاربها ، وأخيرًا دعت على نفسها بعدم البقاء خشية الافتتان بالدنيا ، وهذا دليل على كمال الزهد والخشية .

---

(١) يعني عبد الوهاب بن عطاء الذي روي عنه ابن سعد .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٠٩ – ١١٠ .

من مواقف سلمان رضي الله عنه

من أخبار زهد الصحابة رضي الله عنهم ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث شقيق بن سلمة قال: دخلتُ أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فقال سلمان : لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلَّفْتُ لكم ، ثم جاء بخبز وملح ، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا صعتر ، فبعث سلمان بمطْهرته فرهنها ، ثم جاء بصعتر ، ولما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنَّعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قَنِعْتَ بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن منصور الطوسي وهو ثقة(١) .

فهذا مثال في الزهد والقناعة يقدمه صاحب من أكابر أصحاب النبي ﷺ .

لقد كان بإمكان سلمان رضي الله عنه أن يملك الكثير من المال ،

---

(١) مجمع الزوائد ٨/ ١٧٩ .

وأن يقدم لضيوفه الكثير من الطعام ، ولكنه كان يتصدق بعطائه ويأكل متقشِّفًا من عمل يده ، ويقدِّم لضيوفه ماتيسر له ليجعل من نفسه قدوة للتابعين في الزهد والقناعة .

ومع هذا الزهد البالغ فإنه لما حضره الموت كان يبكي من خشية الله تعالى كما رُوي عن ثابت البناني قال:لما مرض سلمان خرج سعد[1] من الكوفة يعوده ، فقدم فوافقه وهو في الموت يبكي ، فسلم وجلس وقال : مايبكيك يا أخي ؟ ألا تذكر صحبة رسول الله ﷺ ؟ ألا تذكر المشاهد الصالحة ؟

قال : والله مايبكيني واحدة من ثنتين : ما أبكي حُبًّا بالدنيا ولا كراهية للقاء الله ، قال سعد: فما يبكيك بعد ثمانين ؟ قال: يبكيني أن خليلي عهد إليَّ عهدًا قال : « ليَكُنْ بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب» وإنا قد خشينا أنا قد تعدينا[2] .

---

(١) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥٦ .

فهذا عجيب أن تبلغ الخشية عند سلمان رضي الله عنه إلى هذا الحد مع أنه الذي ضرب الأمثلة الرائعة في الزهد والورع ، فهو الذي كان يسكن في بيت من الخوص وهو أمير المدائن!

إنه الإيمان القوي الذي يصنع العجائب ، حيث يصفو التفكير فيكون منطلقا نحو الآخرة ومافيها من حساب وجزاء فيتصور صاحبه أنه قد قصَّر في عمل الآخرة مع أنه قد بلغ درجات عالية في الكمال .

لقد كانت أقوال الرسول ﷺ وتوجيهاته الحكيمة ماثلة أمام أعين الصحابة رضي الله عنهم طوال حياتهم فكانت سدّا منيعا يحول بينهم وبين التوغل في الدنيا .

لقد كانوا يسمعون منه ﷺبوعي وإدراك وعزم أكيد على التنفيذ، ثم يطبقون حالاً ماسمعوا عمليا، لايعتريهم الكسل ، ولايدبُّ إلى حياتهم طول الأمل ، ولاتزيدهم سنيُّ العمر الطويلة إلا مضاعفةً في الخشية ومزيدًا من العمل الصالح وتَرَقِّيًا في مدارج التقوى والحذر من الفتن .

ومن أمثلة اتصافه باليقين المبني على قوة الخشية والرجاء ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بُقَيرةَ امرأة سلمان الفارسي رضي الله عنه قالت : لما حضر سلمان الموتُ دعاني وهو في علِّية لها أربعة أبواب ، فقال: افتحي هذه الأبواب يابقيرة فإن لي اليوم زوارًا لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون علي ، ثم دعا بمِسْك له ثم قال : أدِيفيه في تَوْر [1] ، ففعلتُ، ثم قال : انضحيه حول فراشي ، ثم انزلي فامكثي فسوف تَطَّلعين فترَيْني على فراشي ، فاطَّلعت فإذا هو قد أُخِذَ روحُه فكأنه نائم على فراشه – أو نحوًا من هذا – [2] .

ففي هذا الخبر يخبر سلمان رضي الله عنه بقرب مجيء الملائكة عليهم السلام لقبض روحه، ويستقبل هذا الحدث المترقب بفرح واستبشار ، وهو مثل من عمق اليقين وبروز أحداث الآخرة في أذهان الصحابة رضي الله عنهم .

---

(١) أديفيه أي اخلطيه ، والتور إناء يوضع فيه الماء .

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٠٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥٣ .

فكم من الناس يحضره ملائكة الموت لقبض روحه وهو ساهٍ لاهٍ في دنياه، يضرب بفكره في طول الأرض وعرضها ، وكأنه آمِنٌ من ملك الموت ، أو كأنه يعيش في دار خلود .. ألا وإن دار الخلود هي التي نسيها ولها عنها بمطالب دار فانية .

وإذا كان كثير من الناس على هذه الشاكلة فإن صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا كذلك، بل كانوا ينظرون إلى الآخرة كَجَبَلٍ عظيم شاهق يُساق الناس إليه بما فيه من نعيم وجحيم ، وهم في مسيرهم قد طمحت أبصارهم لذلك الجبل متناسين مايمرون به في طريقهم من رياض تُمتِّع أنظارهم ، غير مبالين بما يفاجَؤون به من حجارة وأشواك تُدمي أقدامهم .

ونجد سلمان رضي الله عنه وهو ينتظر ذلك اليوم الذي سيزوره فيه ملائكة الموت قد أعد شيئا من الطيب الفاخر الذي حرم منه نفسه ليقدمه لزائريه من رسل الله جل وعلا .. وهذا مظهر عالٍ من مظاهر اليقين ونفحة من شفافية الروح سَمَتْ حتى ظهرت على مطالب الجسد ، فأصبحت مطالب الجسد مسخَّرة لمطالب الروح .

من مواقف ثابت بن قيس رضي الله عنه

من ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار ، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ماشأن ثابت ؟ أَشْتكَى ؟ قال سعد : إنه لجَاري وماعلمت منه بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول النبي ﷺ فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار ، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : بل هو من أهل الجنة .

وفي رواية لمسلم من حديث أنس قال : كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار .. وذكر نحوه [1] .

---

(١) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ١١٩ ص ١١٠ .

وجاء في رواية أبي عبد الله الحاكم لهذا الخبر أن النبي ﷺ قال : ياثابت ألا ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ قال: بلى يارسول الله،فعاش حميدا وقُتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب .

وقال الحاكم : صحيح من شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وأقره الذهبي [1] .

وهكذا بلغت الخشية بثابت بن قيس بن شماس إلى حد المرض مع أنه لم يكن مقصودا بتلك الآية ، ولكن لمَّا كان خطيب النبي ﷺ في المناسبات خشي أن يكون رَفَع صوته فوق صوته فأصابه ما أصابه ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره للحياة الآخرة ، وكانت تلك الخشية من ثابت وماتبعها من تأثره سببا في حصوله على تلك البشارة الغالية من رسول الله ﷺ.

---

(١) المستدرك ٣/ ٢٣٤ .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

عن حمزة بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده عن عبد الله بن عمر قال: خطرت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] فتذكرت ماأعطاني الله فما وجدت شيئًا أحب من جاريتي رميثة ، فقلت : هذه حرة لوجه الله ، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، فأنكحها نافعا وهي أم ولده [١] .

فهذا مثل من الإسراع في فعل الخيرات وتطبيق التوجيهات الإلهية وإن كانت من النوافل التي تقاوم رغبات النفس وأهوائها .

وهكذا يُحلِّق السابقون بالخيرات في أجواء عالية من الاستقامة ونسيان الذات في سبيل السمو نحو تطبيق الأهداف العليا للإسلام .

إن هوى النفس يظل مسيطرا على سلوك الإنسان مادام فكره يدندن حول المستقبل الدنيوي، ولكن حينما يكون المستقبل

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٦٨ .

الأخروي هو الذي يشغل فكر الإنسان فإنه يتنازل طوعا واختيارًا عن كثير من هواه ليحَوِّل ذلك إلى عمل صالح يرفع رصيده في الحياة الآخرة .

ومن ذلك مارواه الحافظ أبو نعيم من حديث قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثيابا خشنة- أو قال : جشبة - [1] فقلت له : يا أبا عبد الرحمن إني أتيتك بثوب ليِّن مما يُصنع بخراسان، وتقرُّ عيناي أن أراه عليك، فإن عليك ثيابا خشنة – أو قال : جشبة – فقال: أَرِنِيه حتى أنظر إليه قال: فلمسه بيده وقال: أحريرٌ هو ؟ قلت : لا إنه من قطن ، قال: إني أخاف أن ألبسه ، أخاف أن أكون مختالا فخورا ، والله لايحب كل مختار فخور [2] .

وهكذا ترك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذلك اللباس مع أنه مباح خشية مشابهة أهل الفخر والخيلاء ، وفضَّل البقاء على لباسه

(١) أي غليظة .

(٢) الحلية ١/ ٣٠٢ .

الخشن لأنه أقرب إلى الزهد والتواضع .

ومن مواقفه رضي الله عنه في الخشية من الله تعالى ماروواه الإمام أحمد من حديث البراء بن سليم قال: سمعت نافعا يقول : ماقرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط مـن آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة :٢٨٤] ثم يقول : إن هذا لإحصاء شديد [١] .

وهذا يُعدُّ مثلا عاليا في تدبر كتاب الله عز وجل وحضور القلب معه وشدة الخشية منه بالرغم من تكرر تلاوته كثيرا ، وإن من يتصور حقيقةً أن الله تعالى سيحاسبه على ما يُخفي ويعلن فإن خوفه من الله تعالى يعظم ومحاسبته لنفسه تشتدّ .

ومثل آخر رواه هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال : وجاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه دينارًا ، فلما انصرف قال له ابنه : تقبل الله منك يا أبتاه ، فقال: لو علمت أن الله يقبل مني سجدة

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٧٦ .

واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت ، أتدري مِمَّن يتقبل ؟ إنما يتقبَّل الله من المتقين [1] .

وواضح أن مقصود ولد عبد الله بن عمر هو الدعاء لا الخبر ، والدعاء جائز بل مطلوب من المسلم لأخيه ، ولكن من شدة خشية ابن عمر من الله تعالى فإنه قارن حالاً بين التقوى وقبول العمل ، فخشي أن لايكون من المتقين .

وهذا تواضع عظيم منه حيث لم يَعدَّ نفسه من المتقين مع أنه من أئمَّتهم حيث إنه من السابقين بالخيرات ، واستحضار سريع لكتاب الله تعالى ومافيه من هداية وبيان ، وإنما يدل ذلك على كثرة تلاوة كتاب الله تعالى مع التدبر لمعانيه .

وهذا منهج بليغ في التربية حيث يشدُّ سامعيه إلى بذل الجهد للوصول إلى درجة المتقين ليتقبَّل الله تعالى أعمالهم الصالحة .

وفيه فهم دقيق لمهمة المسلم في هذه الحياة ، حيث أحب

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٨٦ .

الانتقال إلى الآخرة لو ضمن أن الله تعالى تقبَّل منه عمله الصالح ، ولكنه يواصل العمل عَلَّهُ يظفر بقبول من الله جل وعلا .

ومثل آخر رواه سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ماء مُبَرَّدًا فبكى فاشتد بكاؤه ، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال:ذكرت آية في كتاب الله عز وجل ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ :٥٤] فعرفت أن أهل النار لايشتهون شيئًا شهوتهم الماء وقد قال الله عز وجل – يعني عن أهل النار ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف :٥٠] [١] .

وهو واقع مؤثر يدل على يقظة الضمير وصدق تمثُّل معاني الإسلام في النفوس .

إن صاحب القضية الذي يعيش لأجلها لابد أن يبرزها في كل مناسبة، وإن القضية التي كانت تهيمن على حياة ابن عمر هي الحياة الآخرة ومافيها من مشاهد أهل الجنة وأهل النار.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٧٨ .

فحينما جيء له بالماء المبرَّد تذكَّر حالاً عذاب أهل جهنم وقول الله تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فتذكر أن أشهي شيء إلى أهل النار هو الماء،فحصل له ماحصل من هذا التأثر والبكاء الشديد.

وذكر ابن الجوزي خبرًا عن سفيان قال: أراد ابن عمر مرة الصَّدَر من مكة فاتَّخذ له ابن صفوان سفرة – يعني طعامًا لسفره – من نقيٍّ وفالوذج وأخبِصَة – يعني ألوانًا من الطعام الفاخر– وبعث بها إليه ، فأُتِيَ بها ، فلما نظر إليها بكى وقال : ماهكذا كنا ، ماشبعت منذ أسلمت ، وأمر بها فقسمت على أهل الماء ، ودعا بسفرته وقال:لاخير إلا فيما يبقى نفعه غدا [1].

الله أكبر ما أعظمه من موقف !

إذا كنت يا ابن عمر تبكي لرؤية مظاهر الدنيا وشيء من حياة الترف فلَكَمْ بكى أناس حسرة على الحرمان منها !

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٧٥ .

ولكن ما أبعد الفرق بين مطلبك الأسمى ومطالب هؤلاء الدَّنِيَّة !

إنه يمثِّل البُعْد الشاسع بين منـزلة الآخرة ومنـزلة الدنيا .

وإذا كان أبناء الدنيا من أجلها يعملون ومن أجلها يفرحون ويحزنون ، فهنيئًا لك يا ابن عمر أن حَظيتَ بتوفيق الله تعالى لتكون من عباد الله المخلصين الذين وضعوا نُصْب أعينهم في هذه الحياة ذلك الهدف الأعلى ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

من مواقف سعيد بن عامر بن حِذْيَم رضي الله عنه

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الرحمن بن سابط قال : دعا عمر بن الخطاب رجلا من بني جمح يقال له سعيد بن عامر بن حذيم فقال له: إني مستعملك على أرض كذا ، فقال له: لاتفتنِّي يا أمير المؤمنين فقال : والله أدعك ، قلدتموها في عنقي وتركتموني ، فقال عمر – يعني بعد أن ولاه على عمله - : ألا نفرض لك رزقا ؟ قال: قد جعل الله في عطائي مايكفيني دونه .

قال : وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم وتصدق ببقيته ، فتقول امرأته: أين فضل عطائك ؟ فيقول لها : قد أقرضته ، – يعني بذلك الصدقة – فأتاه ناس فقالوا : إن لأهلك عليك حقا ولأصهارك عليك حقا ، فقال : ما أنا بمستأثر عليهم ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين ، ولو اطلعت خَيْرة من خيرات الجنة لاشرقَتْ لها الأرض كما تشرق الشمس ، وما أنا بمتخلف عن العُنُق الأول بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول «يجمع الله عز وجل الناس ليوم الحساب فيجئ فقراء المؤمنين فَيَزِفُّون كما

يَزِفُّ الحمام – يعني يسرعون – فيقال لهم : قفوا عند الحساب فيقولون : ماعندنا حساب ولاآتيتمونا شيئًا [1] ، فيقول لهم ربهم: صدق عبادي، فيفتح لهم باب الجنة فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاما » .

فبلغ عمرَ أنه يمر به كذا وكذا لايدخَّن في بيته فأرسل إليه عمر بمال، فأخذه فصرَّره صررا فتصدق به يمينا وشمالا ، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لو أنَّ حوراء أَطْلَعت إصبعا من أصابعها لوجد ريحها كل ذي روح » فأنا أدعهن لكنّ ! فو الله لأنتن أحرى أن أدَعكُنَّ لَهُنَّ منهنَّ لَكُنَّ [2] .

وعن مالك بن دينار قال: لما أَتَى عمر رضي الله عنه الشام طاف بِكُوَرِها – يعني قراها- قال: فنزل بحضرة حمص فأمر أن يكتبوا له

(١) في الإصابة لابن حجر من رواية أبي يعلى والحسن بن سفيان والبغوي "والله ماكان لنا شيء نحاسب عليه" –٢/ ٤٧–.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٤٦ ، صفة الصفوة ١/ ٦١١ .

فقراءهم ، قال: فَرُفع إليه الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر بن حِذْيَم أميرها ، فقال: من سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا ، قال: أميركم ؟ قالوا : نعم، فعجب عمر ، ثم قال : كيف يكون أميركم فقيرًا ؟ أين عطاؤه ؟ أين رزقه ؟ [1] .

قالوا : يا أمير المؤمنين لايمسك شيئًا ، قال: فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها ثم بعث بها إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا : بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك، قال: فجاء بها إليه الرسول فنظر فإذا هي دنانير ، قال: فجعل يسترجع ، قال: تقول امرأته : ماشأنك يافلان أمات أمير المؤمنين ؟ قال: بل أعظم من ذلك ، قالت : ما شأنك ؟ قال: الدنيا أتتني ، الفتنة دخلت علي ، قالت : فاصنع فيها ماشئت ، قال: عندك عون ؟ قالت: نعم قال: فأخذ دريعة – يعني ثوبا – فصرَّ الدنانير فيها صرارا ، ثم جعلها

(١) العطاء هو الذي يشترك فيه جميع أفراد الأمة ، والرزق هو المال الذي يأخذه الولاة مقابل التفرغ للولاية .

في مخلاة ، ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها ، فقالت امرأته : رحمك الله لو كنت حبست منها شيئا نستعين به ، قال: فقال لها : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو اطَّلعَت امرأة من نساء الجنة إلى أهل الأرض لَمُلأَتْ ريح مسك » وإني والله ماكنت لأختارك عليهن ، فسكتَتْ [1] .

من مواقف أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجرا من الجوع ، فقالت لي امرأتي : إئت رسول الله ﷺ فاسأله فقد أتاه فلان فسأله فأعطاه ، وأتاه فلان فسأله فأعطاه ، فقلت: لا حتى لا أجد شيئا ، فطلبت فلم نجد شيئا فأتيت النبي ﷺ وهو يخطب ، فأدركت من قوله: « من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله» قال: فما سألت أحدا بعده ،ومازال

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٦٤ .

الله يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا، رضي الله عنه[1] .

فهذا مثل من العفة عن المال مع الضرورة إليه طلبا لرضوان الله تعالى ، وهذا مثل من اليقين والثقة بوعد الله جل وعلا ، فأبو سعيد سعد بن مالك الخدري رضي الله عنه ما أن سمع كلام النبي ﷺ في الحث على العفة وما اشتمل عليه من الوعد بإغناء الله سبحانه للعبد المحتاج وإعفافه برزق من عنده إذا هو أعف نفسه عن المسألة حتى ترك ماكان عازما عليه من ذلك واستمر على تلك العفة حتى رأى تحقق وعد الله جل وعلا فيه ، فكان بعد ذلك من الأغنياء .

من مواقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي عن ابن قمادين قال : لم يكن من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة أكثر صلاة ولاصوما ولاصدقة ولا أقبل على مايعنيه من أمر الآخرة من سهيل ابن عمرو ،حتى إن كان لقد شحب لونه ، وكان كثير البكاء رقيقا عند قراءة القرآن، لقد رئي يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو بمكة حتى خرج معاذ من مكة فقال له ضرار بن الخطاب : يا أبا يزيد

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٧١٥ ، وقول النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ٤ .

تختلف إلى هذا الخزرجي يقرئك القرآن ؟ ألا يكون اختلافك إلى رجل من قومك من قريش ؟ فقال : ياضرار هذا الذي صنع بنا ماصنع حتى سُبقنا كل السبق، أي لعمري أختلف إليه ، لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية ، ورفع الله بالإسلام قوما كانوا لايُذكرون في الجاهلية، فليتنا مع أولئك فتقدمنا "[1] .

فهذا الخبر يحتوي على قبس من نور الهداية بعد ظلام الغواية ، فلقد كان أبو يزيد سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي من أعظم المناوئين للإسلام قبل فتح مكة ، وهو الذي أبرم شروط الصلح الجائرة على المسلمين يوم الحديبية ، ولكنه بعدما اهتدى إلى الإسلام تحول إلى إنسان آخر.. لقد كان الهدف الذي يسعى له قبل أن يسلم هو أن يكتسب شيئا من مجد الدنيا وعزها، ولم يكن مؤمنًا بالآخرة حتى يحسب لها حسابا ، وكان من أجل المجد الدنيوي يقف ضد دعوة الإسلام بإصرار وشدة ، لأن الإسلام في نظره يحجب عنه

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣١ – ٧٣٢ .

المنـزلة الاجتماعية العالية التي وصل إليها، ولكنه بعد أن أسلم أدرك أن الهدف الأعلى للإنسان هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية،وعرف أن الدنيا بما فيها من مال ومجد ماهي إلا معبر للآخرة ، فأدرك بثاقب بصره أن الاشتغال بالدنيا عن الآخرة حماقة وطيش ،وأن العقل السليم يقتضي منه أن يشتغل بالغاية ، وأن يسخر لها الوسيلة،فكان مكبا على الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وجهاد ، حتى مات شهيدا يوم اليرموك رضي الله عنه .

ومن قوة دينه ورسوخ يقينه أنه لم يلتفت للعصبية القبلية ، فجعل من نفسه وهو الكبير السن والمنـزلة في قومه تلميذا لأحد شباب الأنصار يعلمه القرآن ، ولما اعترض عليه في ذلك ضرار بن الخطاب أبان له بأن تلك التفرقة القبلية والاعتزاز بالقوم من أمر الجاهلية ، وأظهر فضل السابقين إلى الإسلام وإن كانوا مملوكين فضلا عن أن يكونوا من قبائل أخرى .

من مواقف أبي هاشم بن عتبة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه أبو عيسى الترمذي والنسائي من حديث أبي وائل رضي الله عنه قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده ، فوجده يبكي ، فقال : ياخالُ مايبكيك؟ أَوَجع يُشئزك [أي يقلقك] أم حرصٌ على الدنيا ؟ قال: كلا ، ولكنَّ رسول الله عهد إلينا عهدا لم آخذ به ، قال: وما ذلك ؟ قال: سمعته يقول : إنما يكفي من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعت (١) .

وفي رواية : فلما مات حُصِّل ما خلَّف فبلغ ثلاثين درهما ، وحُسبتْ فيه القصعة التي كان يعجن فيها وفيها كان يأكل (٢) .

فهذا مثل من الخوف من الله تعالى وإحساس قوي ودقة في محاسبة النفس من هذا الصحابي الجليل أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة القرشي ، حيث ذكر وهو مريض ما أوصاهم به رسول الله ﷺ من

---

(١) سنن الترمذي رقم ٢٣٢٨ في الزهد ، باب في هم الدنيا وحبها ، سنن النسائي ٨/ ٢١٨ في الزينة ، باب اتخاذ الخادم.

(٢) جامع الأصول ١/ ٦١٢ .

الزهد في الدنيا والتقلل منها ، فبكى من خشية الله تعالى ، مع أنه كان من الزاهدين ، حيث لم يبلغ ما خلَّفه بعد موته ثلاثين درهما ، ولكن من شدة خشيته تصور ماعنده من القليل كثيرا، وهذا دليل على قوة الإيمان وشدة استحضار عظمة الله تعالى والدار الآخرة .

وهذا الذي بكى مما تصوَّر عدم تحقيقه ليس واجبا شرعا ، لأنه لم يترك واجبا ولم يرتكب محرما، وإنما هو من كمال الدين ، ولكنَّ أهلَ الطموح نحو الكمال في الدين يسوؤهم ويقضُّ مضاجعهم مايشعرون به من نقص في الحسنات وهمْ قادرون على أن يبلغوا الكمال .

من مواقف عبد الله ابن السعدي رضي الله عنه

أخرج الإمام البخاري من حديث حويطب بن العزى رضي الله عنه أن عبد الله ابن السعدي رضي الله عنه [١] أخبره أنه قدم على عمر رضي الله عنه في خلافته فقال له عمر : ألم أحدَّث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا فإذا أُعطيت العُمالة كرهتها؟ فقلت: بلى ، فقال عمر : ماتريد إلى ذلك ؟ قلت : إن لي أفراسًا وأعبُدًا وأنا بخير ، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين ، قال: عمر : لاتفعل فإني كنت أردت الذي أردت فكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر مني حتى أعطاني مرة مالاً فقلت : أعطه أفقر إليه مني ، فقال النبي ﷺ : «خذه فتموَّلـه وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال – وأنت غير مشرف ولاسائل – فخذه ، وإلا فلا تتبعه نفسك» [٢] .

فهذا من أمثلة العفة ، حيث كان عبد الله ابن السعدي رضي الله

---

(١) هو من بني عبد شمس العامري القرشي وإنما قيل له السعدي لأنه كان مسترضعا في بني سعد (الفتح١٣/ ١٥١).

(٢) صحيح البخاري رقم ٧١٦٣ ، الأحكام (١٣/ ١٥٠) .

عنه يعمل للمسلمين أعمالا يستحق عليها الأجرة ، ثم يأبى أن يأخذها ليكون أجره الأخروي كاملا ، فأرشده أمير المؤمنين عمر ﵁ إلى ما أرشده إليه النبي ﷺ ،حيث يجمع بين عملين صالحين : التعفف عن مال المسلمين العام ، والتصدق به على الفقراء .

من مواقف الحسن بن علي رضي الله عنهما :

عن عامر الشعبي قال : حدثني سفيان بن الليل [1]قال : قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة : يا مُذلَّ المؤمنين، قال: لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ؟ يقول : « لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية،فعلمت أن أمر الله واقع ، فكرهت أن تُهراق بيني وبينه دماء المسلمين»ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى[2] .

في هذا الخبر مثل من أمثلة الورع عن دماء المسلمين والزهد في الجاه ، فقد كان مع الحسن بن علي رضي الله عنهما جيش كبير ، وكان

---

(١) سفيان ابن الليل ، ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني بهذا الاسم من شيوخ عامر الشعبي في تهذيب التهذيب .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٤ .

كبراء جيشه على استعداد للقتال ، ولكنه تنازل لمعاوية رضي الله عنه حقنا لدماء المسلمين ، وهذا يُعدُّ موقفًا كبيرا يذكر له ويشكر عليه ، وهو موقف يدل على نوع من الشجاعة في مجابهة المعارضين الذين حكموا عليه بأنه قد أذل المؤمنين .

وإذا كانت الشجاعة تتمثل أحيانًا في الإقدام على القتال ومجابهة المخالفين فإنها تكون أيضًا في الإحجام عن القتال والعزم على السلم والصلح ، وهذا يُعدُّ سيرًا مع الحكمة الصائبة ، فإن الحكمة تكون في الإقدام حينما يكون الإقدام في صالح الأمة الإسلامية، وتكون في الإحجام حينما يكون الإحجام في صالح الأمة .

وقد انتفع الحسن بالحديث المذكور فصدَّه ذلك عن الحرب مع معاوية ، إضافة إلى قول الرسول ؟ فيه « إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » [1] .

فتأول ذلك بالتنازل عن الحكم لمعاوية .

---

(١) صحيح البخاري ٧١٠٩ (١٣/ ٦١) .

من أخبار الأمم الماضية

من ذلك ماذكره وهب بن منبه اليماني قال : أتَى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنـزير ، فأعْظَمَ الناس مكانه وهالَهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك – سرّا بينه وبينه – : أيها العالم اذبح جدْيًا مما يحل لك أكله ثم ادفعه إليَّ حتى أصنعه لك على حِدته ، فإذا دعا الملك بلحم الخنـزير أمرتُ به فوُضع بين يديك فتأكلَ منه حلالا ، ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنـزير ، فذَبح ذلك العالم جديًا ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدَّم إلى هذا العالم لحمُ الخنـزير أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدي ، واجتمع الناس لينظروا أمر هذا العالم فيه ، أيأكل أم لا ! وقالوا : إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنـزير فوُضعت بين أيديهم ، ووُضع بين يدَي العالم لحمُ ذلك الجدي الحلال المذكَّى .

فألهم الله ذلك العالم فألقى في رُوعه وفكره ، فقال : هبْ أني أكلت لحم الجدي الذي أعلم حلَّه أنا فماذا أصنع بمن لايعلم ؟

والناس إنما ينتظرون أكلي ليقتدوا بي،وهم لايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنـزير ، فيأكلون اقتداء بي ، فأكون ممَّن يحمل أوزارهم يوم القيامة ، لا أفعل والله وإن قُتلت وحُرِّقت بالنار ، وأبَى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويرمئ إليه ويأمره بأكله ، أي إنما هو لحم الجدي ، فأَبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى فألحُّوا عليه فأبى، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله .

فلما ذهبوا به ليقتلوه قال له صاحب الشرطة : مامنعك أن تأكل من اللحم الذي ذكَّيتَه أنت ودفعتَه إلي ؟ أظننت أني أتيتك بغيره وخُنتك فيما ائتمنتني عليه ؟ ماكنت لأفعل والله ، فقال له العالم : قد علمت أنه هو ولكن خفت أن يتأسى الناس بي ، وهم إنما ينتظرون أكلي منه ولايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنـزير وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول: قد أكله فلان ، فأكون فتنةً لهم ، فقُتل رحمه الله [1] .

فهذا الخبر من روائع الأخبار التي حفظها وهب بن منبه اليماني

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٤ .

رحمه الله تعالى عن أهل الكتاب، ورواية هذا الخبر وأمثاله جائزة لقول رسول الله ﷺ « حدِّثوا عن بني إسرائيل ولاحرج »[1] ولكونه موافقا لما جاء في شريعة الإسلام .

وقد كان وهب بن منبه من أوعية العلم ، ومن أهل الصلاح والعبادة ، وهو من التابعين .

أما ذلك العالم الرباني الذي أخبر عنه وهب فقد كانت همته متوجهة إلى الآخرة وإلى تذكُّر موقفه للحساب بين يدي الله تعالى ، فقد تذكَّر أن الله تعالى سائله عن تلك الأمة التي ستقتدي به وسترتكب الإثم بسببه ، فحالفه توفيق الله تعالى وهداه عقله السليم إلى أن النجاة من عذاب الدنيا مطلب رخيص لأنه لايعادل ذرة من عذاب الآخرة ، وأن سعادة الدنيا لاتعدل ذرة من سعادة الآخرة ، فقرر الامتناع من أكل ذلك اللحم مع يقينه بأنه من اللحم الحلال ، حتى لايفتن الناس في عصره ومن يأتون بعد ذلك ، حيث إنه سيظهر

---

(١) صحيح البخاري ، أحاديث الأنبياء ، رقم ٣٤٦١ (٦/ ٤٩٦) .

للناس أنه قد أكل لحم الخنـزير .

وهذا مثل رفيع في الورع والخشية ، وذلك مبني على المحافظة على استقامة الناس وهدايتهم ، وهذا مطلب مهم في الإسلام .

هذا وإن الورع من أفضل العبادات كما جاء في قوله رسول الله ﷺ :« يا أبا هريرة كن ورعًا تكن أعبد الناس » أخرجه الإمام ابن ماجه ، وقال البوصيري : إسناده حسن [1] .

---

(١) سنن ابن ماجه رقم ٤٢١٧ ، كتاب الزهد .

من مواقف أبي مسلم الخولاني رحمه الله

من الأخبار الواردة في ذلك ماذكره الحافظ أبو نعيم في ترجمة أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من حديث عثمان بن عطاء عن أبيه قال: كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منـزله من المسجد كبَّر على باب منـزله فتكبِّر امرأته ، فإذا كان في صحن داره كبر فتجيبه امرأته وإذا بلغ بيته كبر فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد ، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد ، فلما كان عند باب بيته كبر لم يجبه أحد ،وكان إذا دخل بيته أخذَت امرأته رداءه ونعليه ،ثم أتته بطعامه،قال: فدخل البيت فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة في البيت منكِّسة تَنكُتُ بعودٍ معها ، فقال لها : مَالكِ ؟ قالت:أنت لك منـزلة من معاوية وليس لنا خادم ، فلو سألته فأخْدَمَنَا وأعطاك ، فقال : اللهم من أفسد عليَّ امرأتي فأَعْمِ بصرها .

قال : وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها : زوجك له منـزلة من معاوية ، فلو قلت له يسأل معاوية يُخدِمه ويعطيه عِشْتُمْ .

قال : فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرَتْ بصرها ، فقالت:

مالسراجكم طَفِئَ ؟ قالوا: لا، فعرفَتْ ذنبها فأقبلَتْ إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها .

قال : فرحمها أبو مسلم فدعا الله لها فردَّ عليها بصرها [1] .

أبو مسلم الخولاني هو عبد الله بن ثُوَب الخولاني اشتهر بكنيته ، كان مُجَاب الدعوة ، وأبرز مواقفه وقوفه أمام الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة ، فأوقد له العنسي نارًا وألقاه فيها فلم تَضرَّه ، وهذه من الكرامات المشهورة .

وقد جاء في هذا الخبر أن أبا مسلم إذا انصرف إلى بيته كبَّر ، وهكذا يكون حضور القلب الصادق مع الله تعالى ، فإيذانه أهله بحضوره تكبيرٌ لله تعالى ، وكأنه يُشعرِ أهله ومن في بيته بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلا يليق بالمسلم أن يَشْغَله عن الله تعالى شيء ، وما الذكر اللساني إلا تنبيه للقلب ليكون معمورا بذكر الله جل وعلا واستشعار عظمته وجلاله ،وماوصل السابقون بالخيرات إلى

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩ .

ماوصلوا إليه إلا بمحاولة استدامة حضور القلب مع الله تعالى .

وكان أبو مسلم يعيش عيشة الزهد والقناعة وكان قد ربَّى امرأته على هذه العيشة ، فلا خادم عنده ولايهتم بشيء من كماليات الحياة التي قد يصرفه الاشتغال بها عما هو أجل وأعلى وهو استدامة ذكر الله عز وجل والاجتهاد في عبادته .

لقد كان زاهدا في الدنيا مع مقدرته على اكتسابها والتوسع فيها وظلت امرأته معه في تلك الحياة سامعة له مطيعة إلى أن أنكر منها ذلك التصرف الذي طلبت فيه التوسع في المعيشة وتوفير الخادم لها مادام له حَظْوة عند أمير المؤمنين .

لقد أدرك أبو مسلم حالاً أن امرأةً من ذوات الكيد والإفساد قد دخلت بيته فأفسدت عليه أهله، حيث حوَّلَتْ قناعتها ورضاها بذلك العيش المتواضع إلى سخط وتضجر ومطالبة برفع مستوى المعيشة حين تبين لها أن زوجها قادر على ذلك .

ولم يكن عند أبي مسلم سلاح يلجأ إليه إلا دعاء الله تعالى على من ظلمه وغيَّر عليه أهله ، فدعا على المرأة التي فعلت ذلك بالعَمَى ،

فقد أفسدَتْ عليه بيته ، ولعلها أن تفسد بيوت آخرين من أصحابه الزهاد ، فيكون بذلك قد كفَّ شرها وشر غيرها ممن يبلغه خبرُها فيعتبر بها ويكفُّ عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات .

وأصابت دعوته تلك المرأة ففقدت بصرها فجأة وأدركت سوء فعلها، كما تذكرت في الحال صلاح أبي مسلم فتبادر إلى ذهنها أنه قد دعا عليها .

وهكذا كانت هذه العقوبة التي نالتها تلك المرأة تذكيرًا لها وعبرة لغيرها ممن يسيرون على ذلك الطريق .

ومن صفاته العالية عفة اللسان والزهد في الدنيا والنظر إلى الآخرة ، ومن أخباره في ذلك مارُوي عن علقمة بن مرثد قال : انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ، منهم أبو مسلم الخولاني فإنه لم يكن يجالس أحدًا يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحوَّل عنه ، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا ، فَرَجَا أن يكونوا على ذكر الله تعالى ، فجلس إليهم وإذا بعضهم يقول : قدم غلامي فأصاب كذا وكذا ، وقال آخر جهزت غلامي ، فنظر إليهم وقال : سبحان الله

أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال :لو دخلت هذا البيت حتى يذهب هذا المطر ، فدخل فإذا البيت لاسقف لـه .. جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا .

وقال علقمة بن مرثد في وصف عبادته ومداومته على صيام النفل في كبر سنه : وقال له قائل حين كُبر ورَقَّ : لو قصرت عن بعض ماتصنع ، فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلَبة ألستم تقولون لفارسها : دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تسْتَبْقُوا منها شيئًا ؟ قالوا : بلى ،قال: فإني قد أبصرت الغاية ، وإن لكل ساعة غاية ، وغاية كل ساعة الموت،فسابق ومسبوق[1] .

وهكذا كان هذا العابد الصالح يشق على نفسه بكثرة الصيام مع كبر سنه ولما لامه في ذلك المشفقون عليه أقنعهم بهذا المثل البليغ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٠٩ .

من مواقف سالم بن عبد الله رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله ورضي عن أبيه وجده ، قال: ولما حج هشام ابن عبد الملك – يعني يوم أن كان أمير المؤمنين – دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال : ياسالم سلني حاجة ، فقال: إني لأستحيى من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال: من حوائج الدنيا ، فقال سالم:إني ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لايملكها؟!(١) .

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك حيث كان يتفقد أهل العلم ويسأل عن حوائجهم ليقضيها ، وهذا دليل على فضله وأخلاقه العالية .

ومثلٌ من الزهد البليغ والورع الدقيق يقدمه العالم سالم بن عبد

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤ .

الله بن عمر ، فهو من زهده في الدنيا لم يسأل الله تعالى شيئا منها ، وهو سبحانه المالك لكل شيء فكيف يسألها غيره ؟ وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ، حيث كان الهدف الأعلى من وجود الإنسان في هذه الحياة واضحا أمامه ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة ، كما قال الله جل وعلا في صفة الصحابة رضي الله عنهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح :٢٩] ففضل الله هو الجنة ، ورضوانه أكبر من ذلك .

من مواقف طاووس بن كيسان رحمه الله

ممن اشتهروا بالعفة والورع طاووس بن كيسان اليماني رحمه الله تعالى ، ومن أخباره في ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر النعمان ابن الزبير الصنعاني : أن الأمير محمد بن يوسف – أبو أيوب بن يحيى – بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار ، وقال للرسول إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك .

قال : فخرج بها حتى قدم على طاووس «الجَنَد» [(١)]، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك، فقال : مالي بها من حاجة ، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، فغفل طاووس فرمى بها الرجلُ من كُوَّة في البيت ثم ذهب راجعًا إلى الأمير وقال : قد أخذها فمكثوا حينا، ثم بلغهم عن طاووس مايكرهون – أو شيء يكرهونه – فقالوا : ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعثه إليك الأمير رُدَّه إلينا ، فقال: ماقبضت منه شيئا

---

(١) يعني قدم على طاوُس في بلاده « الجَنَد » في اليمن .

، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذي ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن ، هل قبضت منه شيئا ؟ قال: لا قال: فقام إلى المكان الذي رمى به فوجدها كما هي وقد بنت عليها العنكبوت فأخذها فذهب بها إليهم [1].

وهكذا تحلَّى هذا العالم الجليل بالعفة والورع ، فأبى أن يأخذ من ذلك المال الذي أراد به ذلك الأمير شراءه ليكسب ولاءه له ، وإذا كسب ذلك فإنه سيظفر بولاء الكثيرين ممن يحبون ذلك العالم ويحترمونه ، ولكن ذلك الأمير رأى أن موقف طاووس لم يتغير ، وأنه مازال يقف منه موقف الناقد المصلح ، فأراد أن يحرجه بطلب ذلك المال ، وهو الذي يعرف جيدا أن الإمام طاووس لن يدخر ذلك المال، وإنما سيقسمه على الفقراء ، فكان الأمر على ماجاء في هذا الخبر ورجع الحرج على ذلك الأمير الذي انكشف قصده من إهداء ذلك

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٦-٢٤٧ .

المال ، وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة رائعة في الترفع عن الدنيا والسمو نحو رضوان الله جل وعلا ونعيم الآخرة .

من مواقف عبد الملك بن مروان رحمه الله

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن بشير عن أبيه : أن عبد الملك بن مروان حين ثقل [1] جعل يلوم نفسه ويضرب بيده على رأسه وقال : وددت أني كنت أكتسب يوما بيوم مايقوتني وأشتغل بطاعة الله .

فُذكر ذلك لأبي حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه ولانتمنى عند الموت ماهم فيه [2] .

نعم فالعبرة بما يُختم للإنسان فيه من عمل ، ولقد أدرك عبد الملك بن مروان أنه في أثناء إمارته وماقبلها قد سفك الدماء وظلم ، ولما كان قد تربى على يد العلماء وحصل في شبابه علما كثيرا فإنه قد أدرك عند وفاته أن ماكان يعمل له هو المجد الدنيوي وقد زال ، وأنه كان الأولى به أن يعمل للمجد الأخروي ولو كان مغمورا بسيط

---

(١) أي نزل به مرض الموت .

(٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ١٥٧ .

الحال يكتسب رزق كل يوم بيومه .

وفي كلمة أبي حازم سلمة بن دينار رحمه الله تعالى دلالة على تفوق العلماء الربانيين في الرأي والحزم والتدبير .

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فكادت تنخلع أفئدتهم ، فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها ؟! قال : يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله ، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله ؟!" [1] .

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها .

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك :

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ماذكر ابن عبد الحكم قال : وخرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدَّم فيه ثقلا ، فبلغ المنـزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدَّمه ، وصار

---

(١) المرجع السابق ٤٥/ ١٥٣ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم /٣٠ .

سليمان إلى حجرة ، ثم فقد عمر فقال : اطلبوه فما أراه قدَّم شيئًا ، فطُلب فوُجد تحت شجرة باكيا ، فأُخبر بذلك سليمان فدعاه فقال: مايبكيك يا أبا حفص ؟ قال: أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة ، من قدَّم شيئًا وجده ، ولم أقدم شيئًا فلم أجد أشيئًا [1] .

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكر البليغ لأهوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخْرِج معه متاعا ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه، وبقي عمر بدون شيء ، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك مايشاء وهو الأثير عنده ، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا .

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكر ، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة ، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ .

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهد في الدنيا ، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جل وعلا .

خبره مع الغراب ومافيه من العبر :

قال الحافظ ابن كثير : وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان : ماتقول ياعمر في هذا ؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضا وأنت المسؤول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه ، فقال له سليمان : ماهذا ياعمر ؟ فقال: لا أدري ، فقال ماظنك أنه يقول ؟ قلت: كأنه يقول : من أين جاءت وأين يُذهب بها ؟ فقال له سليمان: ما أعجبك !! فقال عمر : اعجب ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها [1] .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠ .

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجبا بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة .

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكُّر الحياة الآخرة،فهو حينما سأله سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليذكِّره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها،وإذا ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء.

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخروي لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها .

خشيته من العذاب بالريح :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع

قال : نُبِّئتُ أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح ، فدخل عليه رجل إذا هو منتقع اللون ، فقيل له : يا أمير المؤمنين مالك؟ قال: ويحك وهل هلكت أمة قط إلا من الريح [1] .

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولاتثير في أنفسهم شيئا من الخشية لاعتيادهم عليها، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرا شديدا من ذلك ، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيته من الله تعالى .

خشيته من ارتكاب السيئات بمكة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد المَلاَّء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث : فقال له عبد الملك بن عمر بن عيسى بن عمار : لو أقمت فاستمتعتَ بهذا البيت واستمتعنا معك ! فقال : ما أظن أحدا

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣١٣ .

منكم أشد حبا لهذا البيت مني ، ولكن والله لكأني على الرَّضَف [1] من حين أدخله إلى حين أخرج فرقًا من أن أُحدث .

قال : وهذا حينما كان واليا على المدينة زمن الوليد [2] .

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها ، على الرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف ، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات .

ورعه عما حُمِل على دواب البريد :

قال ابن عبد الحكم في رواية له : وأتت إليه سلتا رُطَب من الأردن ، فقال: ماهذا ؟ قالوا: رطب بعث به أمير الأردن ، قال: علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد ، قال: فما جعلني الله أحق بدواب

---

(١) أي الحجارة المحماة .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧ .

البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد ، فغمزني[1] ابن أخيه فقال لي : إذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما عليّ ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال: اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبَس لنفسه واحدة ، فأتيته بها فقال : ماهذا ؟ قلت: اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى ، قال: الآن طاب لي أكله[2] .

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لايذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمل عليها الطعام ،وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري ، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعا ،وأمر بجعل ثمنه علفًا لدواب البريد،وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف

---

(١) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب .

(٢) سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم / ٥٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٣٣ .

الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه ، فما أعظم الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام !

رده أحد أملاكه من الإقطاع :

من مواقفه رحمه الله في الورع ماحدث به الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم – وكان مزاحم مولاه وكان فاضلا – قال: إن هؤلاء القوم – يعني أهله – أقطعوني مالم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني ، وإني قد هممت بردها على أربابها قال فقال مزاحم : فكيف تصنع بولدك ؟ قال: فَجَرَتْ دموعه على وجنته وجعل يمسحها بأصبعه الوسطى ويقول : أَكِلُهم إلى الله ، قال عبد الله :وكأن مزاحما – مع فضله – لم يقنع بقوله: فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، فقال: إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمر لَهُو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ، إنه همَّ برَدِّ السهلة – قال عبد الله : وهي باليمامة وهي أمر عظيم – قال : وكان عيش ولده منها ، قال عبد الملك ، فماذا قلت له ؟

قال كذا وكذا، قال : بئس لَعَمرُ الله وزير الخليفة أنت ، قال: ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله ، قال: فاستأذن فقال له البواب : إنه قد تبوأ مقيله ، قال: مامنه بد ، قال: سبحان الله ألا ترحمونه ! إنما هي ساعته ، قال: فسمع عمر صوته فقال: عبد الملك ؟ قال: نعم ، قال: ادخل فدخل ، قال: ماجاء بك ؟ قال : إن مزاحما أخبرني بكذا وكذا ، قال: فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية ؟ قال: أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثا ، قال: فرفع يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، قال: ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها [1] .

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تحرج من بقائها في ملكه ، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك ، فلم ير أن له حقًّا في الاختصاص

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٩ – ٩٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٧٩ – ١٨٠ .

بملكها ، فردها إلى بيت مال المسلمين ، مع ماذُكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها ، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق .

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعا تقيا كأبيه ، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عونا لأبيه في حمل الناس على الاستقامة ، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى .

نماذج من تورعه عن المال العام :

من ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق ، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال : أعْلِم أمير المؤمنين أن بالباب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر وقد كان أراد أن ينام ، فقعد وقال : إئذن لـه ،فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأُججت نارًا ، وأجلس الرسول ، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء ،

وهل أعطى كل ذي حق حقه ، وهل له شاك وهل ظلم أحدا ؟

فأنبأه بجميع ماعلم الرسول من أمر تلك المملكة ، فلم يدع شيئًا إلا أنبأه به كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال لـه : يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعْنَى بشأنه ؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال: ياغلام عليَّ بسراج ، فدعا بفتيلة لاتكاد تضيء فقال: سل عما أحببت، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرًا مارأيتك فعلت مثله ، قال: وماهو ؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك .

فقال : ياعبد الله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنتُ أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة تَقِدُ بين يديَّ فيما يصلحهم وهي لهم : فلما صرتُ لشأني وأمر

عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين [1]

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو من الورع، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين .

ولو تصور أيّ مسؤول هذا الأمر لأدرك أن القليل جدّا من المسؤولين يُحظَى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا ، ثم القليل من هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة ، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير .

ويشبه هذا في حياة المسؤولين استعمال الورق والأقلام والظروف ونحوها لصالح المسؤول الخاص مما كان خاصا بالعمل .

وقد يحتقر المسؤول هذا الأمر ولايُلقي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشؤون الخاصة سواء في أمر خطير أو في أمر حقير .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥ .

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: قال عمر: يامزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي، قال: فأتاه برحْلٍ فأعجبه ، قال: من أين أصبتَ هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رحلاً . قال: انطلق فقوِّمْه في السوق.فانطلق فقوَّموه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره ، قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال دينارًا أنسلم منه ؟ قال: إنّما قوَّموه نصف دينار . قال: ضَعْ في بيت المال دينارين .

وأخرج أيضًا من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال: أُخرج مسك من الخزائن فلما وُضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه ، فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين ماضرّك أن وجدتَ ريحه ؟ فقال عمر:وهل يُبْتغى من هذا إلاّ ريحه؟

وأخرج أيضًا من خبر فُرات بن مسلم قال : كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلّ جمعة فعرضتُها عليه فأخذ منها قرطاسًا قدر شبر أو أربع أصابع فكتب فيه حاجة له ، فقلت : غفل أمير المؤمنين .فلمّا كان من الغد بعث إليّ أن تعال وجئ بكتبك،

فجئته بها فبعثني في حاجة ، فلمّا جئت قال: ما آن لنا أن ننظر في كتبك بعدُ ، قلتُ : لا إنّما نظرتَ فيها أمس. قال: خُذْها حتى أبعث إليك . فلمّا فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدر قرطاسي الذي أخذ.

وأخرج أيضًا من خبر وُهَيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز اتّخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل . قال وتقدّم إلى أهله : إيّاكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئًا من طعامها فإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل . فجاء يومًا فإذا مولاة له معها صحفة فيها غرفة من لبن فقال لها : ماهذا ؟ قالت : زوجتك فلانة حامل كما قد علمتَ واشتهت غرفةً من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئًا فلم تُؤتَ به تخوّفت على مافي بطنها أن يسقط ، فأخذتُ هذه الغرفة من هذه الدار . فأخذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجته وهو عالي الصوت وهو يقول: إن لم يُمْسك مافي بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله . فدخل على زوجته فقالت له: مالك ؟ قال: تزعم هذه أنّه لا يُمسك مافي بطنك إلا طعام المساكين والفقراء ، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله . قالت

زوجته : رُدّيه ويحك ، والله لا أذوقه . قال: فردّته .

وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال: سمعتُ أبي يذكر أنّ عمر ابن عبد العزيز كان يسخَّن له في مطبخ العامة ماء يتوضّأ به وهو لايعلم ، ثمّ علم بعد ذلك فقال: كم لكم منذ أسختنموه ؟ فقالوا : شهر أو نحوه . قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطبًا [1] .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكبة من لحم ، فعجل بها ، فقال : أسرعت بها ! قال: شويتها في نار المطبخ – وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم – فقال لغلامه : كُلْها يابني فإنك رُزقتها ولم أُرزقها [2] .

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ – ٣٧٩ ، ٣٩٩ وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٤ – ٢١٩.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩١ .

الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام ، وهي تبين ورعه عن أشياء صغيرة جدا لاتلفت نظر أكثر الناس ، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشبهات تنبه لها ، فقدم بذلك أمثلة رائعة للورع أصبحت عبرة لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

من مواقف إبراهيم بن أدهم رحمه الله

في بيان حقيقة الزهد يقول الحافظ ابن كثير في ترجمة إبراهيم بن أدهم الزاهد المشهور: وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني ، فقال : إن كنت غنيا قبلتها ، وإن كنت فقيرًا لم أقبلها ، قال : أنا غني ، قال : كم عندك ؟ قال : ألفان ، قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟ قال: نعم ، قال : فأنت فقير ، لا أقبلها منك [1] .

وهذا تعليم جيد من إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لذلك الرجل ، حيث يبين له أن الغِنَى الحقيقي هو غنى القلب ، وليس غنى الجيب ، وقد جعل مقياس معرفة الغني الحقيقي بالقناعة ، وذلك بأن لا يكون لدى الإنسان رغبة في تضاعف المال عنده ، لأنه – والحال هذه – يكون قد سخَّر نفسه لماله ، فأما حين يرغب في جمع المال لا لذاته وإنما لينفقه في وجوه الخير ، فإنه يكون قد سخَّر ماله ، وهذا هو الغنى الحقيقي .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤١ .

ومن أخباره في الزهد والتوكل على الله تعالى ماذكره الحافظ ابن كثير قال: وقال حذيفة المرعشي : أويت أنا وإبراهيم – يعني ابن أدهم – إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئا ، فقال لي : كأنك جائع ، قلت : نعم ، فأخذ رقعة فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال المشار إليه بكل معنى .

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر   أنا جائع أنا حاسر أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها ياباري
مدحي لغيرك وَهْجُ نارٍ خضتُها   فأَجِرْ عُبَيْدك من دخول النار

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولاتعلّق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه ، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه ، فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف ، فسألت رجلاً : مَنْ هذا الذي على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصراني ، فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يجيء فيسلم ، فما كان غير قريب

حتى جاء فأكبَّ على رأس إبراهيم وأسلم"[1] .

ففي هذا الخبر مثل بليغ في التوكل على الله تعالى واستحضار عظمته في القلب ، وإذا تجرد قلب المسلم لله جل وعلا فذكره وحده وعظمه وحده ، وأنزل به حاجته وحده فإنه سبحانه يسخِّر قلوب العباد لعبده المؤمن الموحد ، فيفرجُ له من الكربات وييسر له من الأمور مالا يخطر على باله .

فتلك الرقعة المشتملة على كلمات هي من كمال التوحيد سخَّر الله تعالى بها قلب ذلك الرجل النصراني ، فدفع ذلك المبلغ الكبير ، ثم كان لها الأثر البالغ على نفسه حيث دخل قلبه الإسلام .

ولقد كانت فراسة ذلك العالم الربانيِّ إبراهيم بن أدهم قوية ، حيث توقع مجئ ذلك النصراني ليسلم،فكان كما توقع،وذلك لأن الذي يتأثر إلى حد البكاء وبذل ذلك المبلغ الكبير يغلب على الظن أن عقله السليم يقوده إلى هذا الدين الذي خرَّج رجالا موحدين مثل ابن أدهم.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٣ .

من مواقف إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة رحمهما الله

من أخبار الورع عن الجاه والسمعة ماذكره الحافظ ابن كثير عن المدائني قال: بعث عمر بن عبد العزيز عديَّ بن أرطأة على البصرة نائبا ، وأمره أن يجمع بين إياس [يعني ابن معاوية] والقاسم بن ربيعة الجوشني ، فأيهما كان أفقه فليولِّه القضاء ، فقال إياس – وهو يريد أن لايتولى: أيها الرجل سل فقيهَي البصرة : الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لايأيتهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به – يعني بالقاسم – لأنه كان يأتيهما ، فقال القاسم لعدي : والله الذي لا إله إلا هو إن إياسًا أفضل مني وأفقه مني وأعلم بالقضاء ، فإن كنتُ صادقًا فولِّه وإن كنت كاذبًا فما ينبغي أن تُوَلِّيَ كاذبًا القضاء ، فقال إياس : هذا رجل أُوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة ، يستغفر الله ، فقال عدي : أمَا إذا فطنت إلى هذا فقد ولَّيتك القضاء[1] .

فهذا مثل في الورع يقدمه هذان العالمان الجليلان ، وقد غلَّبا –

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ .

لشدة خوفهما من الله تعالى- جانب السلامة من المآثم على جانب اكتساب العمل الصالح ، فإن الولايات ومنها القضاء تُعدُّ من الأعمال الصالحة لمن وُفق فيها إلى العدل والسلامة من الزلل ، ولكنها مزلة قدم وباب من أبواب الفتنة لمن لم يقدر على العدل والوقاية من المآثم .

وقد ظهر في هذا الخبر مقدرة إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة على التخلص من ذلك الأمر لولا ماوُفق إليه أمير البصرة عدي بن أرطأة من إلزام إياس بالقضاء .

من مواقف محمد بن واسع رحمه الله

من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع الإمام الصالح العابد محمد بن واسع الأزدي :وسأبدأ بذكر شيء من أقواله النَّيِّرة في الزهد والورع واليقين ، فمن ذلك قوله « إني لأغبط رجلا معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض »(١) .

وإذا كان هذا الإمام يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين !

وقيل إنه قال لرجل : هل أبكاك قط سابق علم الله فيك ؟(٢) .

يعني أن المقربين مع مايقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة،فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

وقيل له : كيف أصبحت ؟ قال : قريبًا أَجَلي ، بعيدًا أملي ، سيِّئًا عملي [1].

وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور مابعد الموت ، وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتَّهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل ، فكيف بحال المقصرين الظالمي أنفسهم ؟

وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، قال : أوصيك أن تكون مَلِكًا في الدنيا والآخرة ، قال: كيف ؟ قال : ازهد في الدنيا [2].

وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب ، فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة ، وهي أن يكون ملكا في الدنيا والآخرة ، فيتعجب ذلك الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية ، ثم كيف يجمع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

بين الأمرين فيكون ملكا في الدنيا والآخرة ! فلذلك استفهم منه استفهام تعجب ، فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا.

وإذا كان الزهد يرفع من مقام صاحبه في الآخرة لما يترتب عليه من ترك بعض المحبوبات من أجل الله تعالى ، واجتناب مجال المحرمات والشبهات التي يدفع إليها حب الدنيا .. فكيف يكون الزهد رفعة في الدنيا ؟

إنما كان كذلك لأمور منها : أن الزاهد لايصل إلى الزهد في الدنيا إلا إذا وصل إلى مرحلة من القوة يملك فيها هواه ، ويتحكم في جوارحه أن تطيش سهامها ذات اليمين وذات الشمال، والذي يتحكم في نفسه بعقله السليم هو أرفع الناس في الدنيا ، لأنه لايملك جوهرا في جسمه أغلى من العقل ، فإذا أخضع نفسه لعقله السليم الذي يسير على هدى الله تعالى كان في أعلى طبقات المجتمع، لأن فكره سيكون صحيحا ، وسلوكه سيكون قويما .

وقيل : إن الوالي مالك بن المنذر دعا محمد بن واسع فقال : اجلس على القضاء ، فأبى ، فعاوده وقال: لتجلسنَّ أو لأجلدنَّك

ثلاثمائة ، قال : إن تفعل فإنك مسلَّط ، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة [1] .

وهذا مثال للورع ، فقد كان منصب القاضي يلي منصب الأمير في العلو ، وقد يكون أعلى منه ، وهو بالنسبة للنظرة الدنيوية يلبِّي شهوتين .. شهوة المال وشهوة الجاه ، ومع ذلك رفضه محمد بن واسع حتى بعد التهديد بالجلد وبيّن أن سبب رفضه أن هذا المنصب يورث ذلة في الآخرة ، وذلك فيما إذا مال القاضي عن العدل أو لم يتمكن منه، أو داخل نفسه شيء من العجب والنظر إلى الجاه ونحو ذلك ، وبيَّن أن ذلة الدنيا بالتعرض للجلد بسبب الرفض أهون من ذلة الآخرة بالحساب والعذاب .

وهذا لايعني أن القضاة كلَّهم معرضون لذلك ، بل إن العالم إذا آنس من نفسه القوة على العدل، وضمن التمكن من ذلك فإن تولِّي أمور المسلمين في القضاء وغيره يُعدُّ من الأعمال الصالحة ، وإنما تورع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

عنه هذا الإمام وأمثاله خشية عدم القدرة على العدل الكامل فيؤُول الأمر إلى اكتساب السيئات بدلا من الحسنات .

قيل : ودعاه بعض الأمراء فأراده على بعض الأمر فأبى ، فقال : إنك أحمق ، قال محمد : مازلت يقال لي هذا منذ أنا صغير [1] .

يعني أن أهل الدنيا ينظرون إلى المصالح الدنيوية من المال والجاه ونحو ذلك ، فالذي يسير في حياته وهو يلاحظ مستقبله الدنيوي ويخطط له يُعدُّ عندهم حصيف الرأي كامل العقل ، وإنْ قصر في العمل لمستقبله الأخروي أو أهمل ذلك ، بينما يتَّهمون من يعمل لآخرته ويهمل أمور دنياه بالحماقة وربما وصفوه بالجنون .

ورُوي أن قاصّا كان بقرب محمد بن واسع فقال : مالي أرى القلوب لاتخشع ، والعيون لاتدمع ، والجلود لاتقشعر ؟ قال محمد : يافلان ما أرى القوم أُتُوا إلا من قِبَلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

وقع على القلب [1] .

وهكذا كان محمد بن واسع صريحا مع ذلك الواعظ الذي وصف المشكلة والداء وأراد من محمد بن واسع أن يساعده في الحل والعلاج ، ولم يَدْرِ ذلك الواعظ أنه هو مصدر المشكلة ومكمن الداء، فبين له محمد بن واسع أن المواعظ إذا صدرت من القلب وصلت إلى القلب ، وإذا صدرت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

وبهذا يُفسَّر كثرة المواعظ والخطب والدروس الدينية مع قلة التأثر وضعف الالتزام فالدُّرر تبقى في أصدافها حتى تجد من يحسن إخراجها .

ولكن ليس العيب دائما في المتكلم ، فقد يكون في السامع لعدم تجرده من الهوى ، وعلى ذلك يحمل عدم استجابة بعض المدعوين للرسل عليهم السلام ، وكلام محمد بن واسع محمول على أنه قد فهم من الواعظ عدم إخلاصه في تلك الموعظة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

وقال سعيد بن عامر : دخل محمد بن واسع على الأمير بلال بن أبي بردة فدعاه إلى طعامه فاعتل عليه ، فغضب وقال : إني أراك تكره طعامنا ، قال: لاتقل ذاك أيها الأمير ، فو الله لخياركم أحب إلينا من أبنائنا [1] .

وصدق محمد بن واسع وبرَّ في قسمه ، لأن الأمراء العادلين تطبَّق بهم الحدود ، ويثبت بهم الأمن، ويعمُّ بهم الرخاء ، وتُحفظ بهم الحقوق ، ويقوم بهم الجهاد ، وتنتعش بهم الدعوة ، فهم أحب للمخلصين لدينهم من أبنائهم الذين ليسوا كذلك .

وربما اعتذر محمد بن واسع عن طعام ذلك الوالي لأنه كان يصوم ويخفي صيامه فلعله كان صائما ذلك اليوم .

وذكر الإمام الذهبي عن ابن شوذب قال : قسم أمير البصرة على قرائها ، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ ، فقال لـه ابن واسع : قَبِلتَ جوائزهم ؟ قال: سل جلسائي ، قالوا : يا أبا بكر اشترى بها رقيقا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

فأعتقهم ، قال : أنشدك الله أقلبك الساعةَ على ماكان عليه ؟ قال: اللهم لا ، إنما مالكٌ حمار، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع [1] .

فهذا مثال رائع لدقة الإحساس والغيرة على الإيمان ، لأن الإيمان ينمو في القلب شيئًا فشيئًا بالتقوى في الفكر والعمل ، وإن من أهم مايحرص عليه أطباء القلوب أن يظل مستوى الإيمان في القلب في علو وتَرَقِّي ، وإن مما يحذرون منه أن ينخفض مستوى الإيمان في القلب ، وإنما ينخفض بارتكاب شيء من المخالفات ، أو ترك بعض الطاعات ، وقد تكون المخالفة معتادة عند عامة الناس، لكنها تكون ذات أهمية عند الخلَّص من أهل التقوى ، وهم يشعرون بهذا الانخفاض إذا خالط إحساسهم شيء من القلق والضجر ، لأن شفافية الإيمان الخالص لاتقبل أن يعانقها شيء من الكدر أو الغبش ، فلذلك لما قال محمد بن واسع لمالك بن دينار : « أنشدك الله أَقَلْبُكَ الساعة على ما كان عليه ؟ أجابه بقوله : « اللهم لا » فكأنما قال له:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

انظر إلى قلبك في المرآة هل خالط صفاءه شيء من الكدرة ؟

ولقد كان مالك بن دينار صريحا حينما أخبر عن إحساسه بما خالطه من الكدر الذي يتمثَّل في تسرُّب شيء من تعظيم البشر إلى القلب ولو بنسبة ضئيلة،حيث يزاحم ذلك وجود الإيمان بالله تعالى وحده،وذلك له عواقبه المؤثرة على الفكر والسلوك إن لم يُحدث صاحبه تصحيحا وتوبة.

ولئن كان مالك بن دينار قد حكم على نفسه بذلك الحكم القاسي فإنه محمول على التواضع والمبالغة في إهانة النفس ، وإلا فهو العالم الرباني ذو المحامد المعروفة ، وإن من فضائله أن يتواضع أمام من يرى له فضلا عليه في اليقين والإيمان ، فيأخذ بنصحه ويثني عليه، ولو كان ممن غلبت عليهم سمعة الدنيا واعتباراتها المعروفة لأخذته العزة بالإثم ، ولردَّ على ذلك الإمام الرباني الناصح بما يقلل من مكانته ، ويُضعف من رأيه ولسوَّغ ماقام به هو من تصرف وأظهره بأنه هو الأمر المشروع الموافق للحكمة .

ولقد كانت سمعة محمد بن واسع عالية في الصلاح والتقوى

حتى أصبح القادة يتيمَّنون بدعائه، قال الأصمعي : لما صافَّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم . سأل عن محمد بن واسع ، فقيل له : هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه ، يُبَصْبِص بإصبعه نحو السماء ، قال : تلك الإصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير [1] .

وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأهم أسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى،وتوثيق الصلة به،واستلهام النصر منه.

ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي، حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة .

ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه ، فلما أُخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه أطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده ، وقال تلك الكلمات العالية : « تلك الإصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ ،وشاب طرير يعني في مقتبل عمره قد طرَّ شاربه .

إن قُوَى الأرض كلَّها بيد الله تعالى ، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو من حسابات البشر والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة ، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاءَ الصالحين ، فلذلك استبشر قتيبة خيرا حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء .

وهذا الفهم العالي من قتيبة رحمه الله يبين لنا سببا مهما من أسباب انتصاراته الباهرة ، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات ، فعلى الرغم من كونه بطلا لايُشَقُّ له غبار ، وقائدًا مخططا يضع للأمور أقرانها ، وسياسيًّا محنكا لايُخدع ، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل عَدَّ ذلك كله من الأمور الثانوية ، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى ، فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى .

ولقد بلغت شهرة محمد بن واسع الدينية مبلغا عظيما في عصره ،

قيل إن حوشبًا قال لمالك ابن دينار : رأيت كأن مناديًا ينادي : الرحيلَ الرحيل،فماارتحل إلا محمد بن واسع فبكى مالك وخر مغشيّا عليه[1] .

لقد فهم مالك بن دينار من هذه الرؤيا أن المراد بالرحيل كمال الخلاص والنجاة ، خصوصا وقد اقترنت بمحمد بن واسع الذي عُرف عندهم بأنه أفضل أهل بلده .

وإن هذا التأثر من مالك الذي وصل إلى حد البكاء ثم الإغماء يدل على قوة إيمانه وشدة خشيته من الله تعالى ، ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

وفي وصف خشية محمد بن واسع يقول جعفر بن سليمان : كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع كأنه ثكْلَى [2] .

إن العالم بالله الذي يرزقه الله اليقين والمعرفة تظهر آثار العبادة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

والخشية على وجهه ، وذلك لأن قلبه يكون قد امتلأ من تعظيم الله تعالى وخشيته ، وإذا امتلأ القلب بالإيمان فرض على الفكر أن يكون حاضرا مع الله تعالى مستحضرا عظمته ، متذكرا ما أعده لأوليائه من النعيم المقيم ، وما أعده لأعدائه من العذاب الأليم ، فلا غرابة أن يكون وجه صاحبه كالثكلى من الحزن والهم .

ولقد كان جعفر بن سليمان فقيهًا في معرفة علاج أمراض القلوب حينما قال هذا الكلام .

ألا ما أحوج الأمة إلى أطباء القلوب الذين في رؤيتهم شفاء القلوب من أمراضها ، وفي مواعظهم توجيه سديد للاستقامة على الصراط المستقيم !

من مواقف إبراهيم التيمي رحمه الله [1]

من أخبار العلماء في الورع ما أخرجه ابن سعد عن علي بن محمد قال : كان سبب حبس إبراهيم التيمي أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي ، فجاء الذي طلبه فقال : أريد إبراهيم ، قال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو يعلم أنه يريد إبراهيم النخعي فلم يستحلَّ أن يدلَّه عليه ، فأُتِيَ به الحجاج فأمر بحبسه في الديماس [2]،ولم يكن لهم ظل من الشمس ولاكنٌّ من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة ، فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس فلم تعرفه حتى كلمها ، فمات في السجن، فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول : مات في هذه البلدة الليلةَ رجل من أهل الجنة ، فلما أصبح قال: هل مات الليلة أحد بواسط ؟ قالوا : نعم إبراهيم التيمي مات في السجن ، فقال : حُلُم ، نزغة من

---

(١) هو الإمام الفقيه الواعظ إبراهيم بن يزيد التيمي من تيم الرباب .

(٢) الديماس يطلق على الحمام والسَّرَب ويسمى به سجن الحجاج كما ذكر صاحب القاموس .

نزغات الشيطان ، وأمر به فأُلْقِيَ على الكناسة [1] .

فهذا مثال للورع الذي يكلف صاحبه تضحية بالنفس ، فقد كان إبراهيم التيمي يعلم أن رسول الحجاج لايريده وإنما يريد إبراهيم النخعي ، فلم يستحل أن يدله عليه وفداه بنفسه فأيُّ عنصر زكي قد اشتمل عليه هذا العالم الجليل !

إن هذه التضحية نادرة المثال ، وإن مما ساعد التيمي على انتصاره على شهوات النفس وأهوائها ما اشتهر به من الزهد في الدنيا والتخفف من مطالب الحياة ، فهو عبد لله تعالى قد سعى حثيثا في إكمال هذه العبودية التي تقتضي من العبد أن يكون على مراد الله تعالى، يتوجه حيثما وجهه الإسلام ، كلما لاح له عمل صالح سارع إليه ، وكلما اعترضه عمل سيء اجتنبه وإن كان في ذلك زهاق نفسه .

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٨٥ .

من مواقف يونس بن عبيد رحمه الله

من العلماء المشهورين بالورع الإمام عبد الله بن يونس بن عبيد العبدي ومن أخباره في الورع والاحتياط في كسب المال الحلال وتحريه الشديد في ذلك ماذكره الإمام الذهبي عن الأصمعي عن مؤمل بن إسماعيل قال : جاء رجل شامي إلى سوق الخزازين ، فقال : عندك مُطْرَف بأربعمائة؟ فقال يونس بن عبيد : عندنا بمائتين ، فنادى المنادي : الصلاة ، فانطلق يونس إلى بني قُشَيْر ليصلي بهم ، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة ، فقال : ماهذه الدارهم ؟ قال : ثمن ذلك المطرف ، فقال : ياعبد الله هذا المطرف الذي عرضته عليك بمئتي درهم ، فإن شئت فخذه وخذ مائتين وإن شئت فَدَعْه ، قال : من أنت ؟ وما اسمك ؟ قال : يونس بن عبيد ، قال : فو الله إنا لنكون في نحر العدو فإذا اشتد الأمر علينا قلنا : اللهم رب يونس فرِّج عنا ،أو شبيه هذا.

فقال يونس : سبحان الله سبحان الله ! [1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

قال الذهبي : وقال : أمية بن خالد : جاءت امرأةٌ يونسَ بن عبيد بجبة خَزّ ، فقالت له: اشترِها، قال: بكم ؟ قالت : بخمسمائة ، قال : هي خير من ذلك ، قالت : بستمائة ، قال: هي خير من ذلك ، فلم يزل حتى بلغت ألفا .

وكان يشتري الإبريسم من البصرة فيبعث به إلى وكيله بالسوس، وكان وكيله يبعث إليه بالخز، فإن كتب وكيله إليه : إن المتاع عندهم زائد لم يشتر منهم أبدا حتى يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد [1] .

قال : وقال بشر بن المفضل : جاءت امرأة بمُطْرَف خزٍّ إلى يونس ابن عبيد تعرضه عليه ، فقال لها:بكم ؟ قالت:بستين درهما ، فألقاه إلى جاره فقال : كيف تراه ؟ قال : بعشرين ومائة ، قال : أرى ذاك ثمنه أو نحوا من ثمنه ، فقال لها : اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بخمس وعشرين ومائة ، قالت : أمروني أن أبيعه بستين ، قال : ارجعي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

فاستأمريهم [1] .

قال : وقال النضر بن شميل : غلا الخَزّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد خزَّازًا فعلم بذلك فاشترى من رجل متاعا بثلاثين ألفا ، فلما كان بعد ذلك قال لصاحبه: هل كنت علمت أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال : لا ، لو علمت لم أَبِعْ قال : هَلُمَّ إليَّ مالي وخذ مالك ، فرد عليه الثلاثين الألف [2] .

وبعد : فهذه أمثلة مهمة للأمانة والورع والمعاملة الإسلامية ، فهذا يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يرد على الرجل الشامي نصف المبلغ الذي دفعه ثمنا لذلك الكساء ، وكان بإمكانه أن يسكت ويأخذ المبلغ كاملا مادام المشتري راضيا بذلك .

ونراه يرفع سعر الجُبَّة التي أراد شراءها من تلك المرأة إلى الضعف مع أنها قد عرضتها عليه بنصف ذلك الثمن .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣ .

ونراه يخبر التجار بزيادة الأسعار في البلاد الأخرى قبل أن يشتري منهم ، ولما اشترى من أحد التجار قماشا وخشيَ أنه لم يعلم بزيادة الأسعار في بلد آخر يؤثِّر على سعر البلد عندهم جاء إليه فأخبره ثم رد عليه بضاعته .

ولما عرضت عليه تلك المرأة ذلك الكساء بستين رفع سعره إلى خمسة وعشرين ومائة .

فما الذي دفع يونس بن عبيد إلى التعفف عن ذلك المال الذي جاء برضَى من أصحابه ؟!

إنه شعوره القوي برقابة الله عز وجل ، وإحساسه بأن أخذ ذلك المال لايُرضي الله سبحانه ، وإيمانه القوي الحي باليوم الآخر ومافيه من الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ، ثم المصير إلى الثواب العظيم أو العقاب الأليم .

إن هذا الشعور لايماثله ولايقاربه أي دافع آخر نحو العفة والنـزاهة ، لأنه يحول بين المرء وهواه المنحرف ، ويعدِّل سلوكه حتى في الأمور التي لاتزال حبيسة الصدور ، ولم تظهر للناس .

وإن يونس بن عبيد بهذه المعاملة الإسلامية ليُعدُّ قدوة عالية للتجارة في العفة والورع واكتساب المال الطيب .

من مواقف الإمام مالك رحمه الله

من ذلك مارواه عبد الله بن مسلمة القعنبي قال : دخلت على مالك فوجدته باكيا ، فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك ؟ قال : يا ابن قعنب على ما فَرَطَ مني ، ليتني جُلِدْتُ بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط مني مافرط من هذا الرأي ، وهذه المسائل ، قد كان لي سعة فيما سُبِقْتُ إليه [1] .

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله يندم في هذا الخبر على ماصدر عنه من مسائل الاجتهاد الفقهية ، ويخشى أن يكون قد لحقه في ذلك إثم فيما لو خالف الصواب ، مع أنه يعلم أن المجتهد إذا كان من أهل الاجتهاد له أجر واحد إن أخطأ وأجران إن أصاب ، ولكنْ غلب عليه مقام الورع والخشية فقال هذا الكلام .

ولم يكن هذا الكلام بشعورٍ منه بالتَّعجل في الفتيا أو التفريط ، فلقد كان شديد التحري في الفتوى، بالغ الدقة في تحرير المسائل ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٤ .

ولقد نفع الله تعالى الأمة بمسائله وفتاويه في أمور لم يُفْتِ فيها من سبقوه من الأمور المستجدَّة ، وإنه ليُعدُّ بهذا الكلام قدوةً حسنة للعلماء الذين قد يتعجل بعضهم بالفتوى ولايعتريه مع ذلك شيء من الخشية ولايدركه الورع .

من مواقف الإمام الشافعي رحمه الله

من ذلك ماذكره المزني قال : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه ، فقلت: ياأبا عبد الله كيف أصبحت ؟ فرفع رأسه وقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخواني مفارقا ، ولسوء عملي ملاقيا ، وعلى الله واردا ، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنِّيها ، أو إلى نار فأعزِّيها، ثم بكى وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي دون عفوك سلَّما
تعاظَمَني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربِّي كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تَزَلْ تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما[1]

فهذا مثل مما كان يتحلى به الإمام الشافعي من خشية الله تعالى ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ علمه ، لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٥-٧٦ .

من مواقف حجاج بن منهال رحمه الله

لقد كان للعلماء مواقف عالية في القناعة والعفة ، ومن أمثلة ذلك ماذكره الإمام أحمد بن عبد الله العجلي عن حجاج بن منهال ، قال : كان – يعني حجاج بن منهال – سمسارًا يأخذ من كل دينار حبة فجاء خراساني موسر من أصحاب الحديث ، فاشترى له أنماطًا ، فأعطاه التاجر ثلاثين دينارًا ، فقال : ماهذه ؟ قال : سمسرتك ، قال : دنانيرك أهون عليَّ من هذا التراب ، هات من كل دينار حبة ، فأخذ منه دينارًا وكسرا [1] .

فهذا العالم التقي حجاج بن منهال الذي كان يعمل في التجارة قد رد ذلك المبلغ الكبير مع أنه يعلم أن التاجر الخراساني قد أعطاه ذلك المبلغ عن طيب نفس وأنه أراد صلته لكونه من العلماء الصالحين، فالمال حلال له والحال هذه ولكنه تورع عنه وقنع بحقه الذي يأخذه مقابل عمله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥٣ .

ولقد كان في عمل هذا العالم الجليل قدوة حسنة للعاملين في التجارة ، وهكذا حينما يدخل علماء الدين الربانيون في المجال التجاري فإنهم يقدمون للمجتمع الإسلامي وغير الإسلامي أروع النماذج في العفة والزهد والورع ، أما حين تقتصر الأسواق على النفعيين فإنها لاتكون بعيدة في الصورة والمضمون عن أسواق غير المسلمين ، فلا يستطيع المسلمون أن يقدموا من التجارة أمثلة حية في الدعوة إلى الإسلام والتمسك بتعاليمه السامية .

من مواقف ابن إدريس وعيسى بن يونس رحمهما الله

لقد كان أغلب العلماء يحتسبون الأجر عند الله تعالى على نشر السنة ولايأخذون أجرة من طلاب العلم ولا من غيرهم مقابل ذلك، ومن أخبارهم في ذلك ماذكره الإمام الذهبي عن مسروق بن عبد الرحمن الكندي قال : حدثني محمد بن المنذر الكندي جارٌ لعبد الله ابن إدريس قال:حج الرشيد فدخل الكوفة فلم يتخلف إلا ابن إدريس وعيسى بن يونس ، فبعث إليهما الأمينَ والمأمون ، فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث ، فقال المأمون : ياعم أتأذن لي أن أعيدها حفظًا ؟ قال : افعل ، فأعادها ، فعجب من حفظه ، ومضيا إلى عيسى فحدثهما ، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم فأبى ، وقال: ولاشربة ماء على حديث رسول الله ﷺ [1] .

فهذا مثل من ورع العلماء وعفتهم حيث كانوا لايأخذون أجرة ولامكافأة على تعليم السنة النبوية ، فقد رد هذا العالم عيسى بن

---

(١) سيرة أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٦ .

يونس بن أبي إسحاق السبيعي مكافأة المأمون مع أنها مبلغ كبير تستشرف له النفوس ، والغالب على العلماء أنهم فقراء ، ومع ذلك قال هذا العالم الجليل ، «ولاشربة ماء على حديث رسول الله ﷺ » .

أما عبد الله بن إدريس الأودي فإن المأمون لم يتجرأ على منحه شيئًا من المال لما اشتهر عنه من عدم أخذ منح السلطان المعتادة فضلا عن أن يكون مقابل تعليم السنة النبوية .

إن هذين العالمين وأمثالهما أصحابُ نفوس كبيرة وطموحات عالية ، فهؤلاء العلماء الربانيون ينظرون إلى الأعلى .. إلى الحياة الآخرة ونعيمها الدائم الذي لايدانيه أي نعيم ، ومن طمح بنظره إلى الأعلى فإنه لايُتصور منه أن ينحط ببصره إلى الأسفل ، فلذلك سهل عليهم اتقاء الشبهات والزهدُ في الدنيا .

ومما روي أيضًا عن عيسى بن يونس السبيعي من التعفف عن أخذ شيء من المال على تعليم السنة النبوية ما ذكره الإمام الذهبي من خبر أبي بلال الأشعري عن جعفر البرمكي قال : ما رأينا في القُرَّاء مثل عيسى بن يونس ، أرسلنا إليه ، فأتانا بالرَّقة ، فاعتل قبل أن

يرجع . فقلتُ له : يا أبا عمرو ، قد أمرنا لك بعشرة آلاف . فقال : هيهِ . قلت : خمسون ألفا . قال : لاحاجة لي فيها. فقلت : ولمَ ؟ والله لأهنيِّنَّكَها ، هي والله مئة ألف ، قال : لا والله ، لايتحدَّثُ أهلُ العلم أني أكلتُ للسنَّة ثمنًا ، ألا كان هذا قبلَ أن تُرسلوا إليَّ ، فأما على الحديث ، فلا ، ولاشربة ماء ، ولا إهْلِيلَجة [1] [2] .

---

(١) الإهليلج ، بكسر الألف وفتح اللام ، وقد تكسر ، والواحدة بهاء : شجر ينبت في الهند وكابل والصين ثمره على هيئة الصنوبر الكبار .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٩٣ .

من مواقف أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال : وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال: كنت يوما عند الرشيد فدعا طباخه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ألوان منه، فقال : أحضره مع الطعام ، فلما وُضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي،فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: ممَّ تضحك ؟ قال : لاشيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلامًا بيني وبين جاريتي البارحة ، فقال له : بحقي عليك لما أخبرتني به ، قال: حتى تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله لتخبرنِّي ، فقال : يا أمير المؤمنين بِكَمْ تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوَّم عليك ؟ قال: بأربعة آلاف درهم ، قال: لا والله يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم ، قال: وكيف ذلك ؟ قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده فقلتَ : لايخلو المطبخ من لحم جزور ، فنحن ننحر كل يوم جزورًا لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأنا لانشتري من السوق لحم جزور ، فصُرف في لحم الجزور من ذلك

اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم ، قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة ، فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف .

قال : فبكى الرشيد بكاء شديدًا ، وأمر برفع السماط من بين يديه، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكتَ والله ياهارون ، ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ، ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف على فقراء الحرمين ، في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يُتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة .

ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وماصرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة ، فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ماتذبحونه من الجزور يفسد أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس ،

فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسَّره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٤٦] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف ، ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في ذلك اليوم عشاء [١] .

فهذا مثل جليل في الخشية من الله تعالى ، فذلك البكاء الطويل كان بسبب خوف هارون الرشيد من عذاب الله جل وعلا مما وقع منه من الإسراف ، مع أنه لم يتعمد ذلك .

لقد كان طوال ذلك اليوم يتذكر وقوفه بين يدي الله تعالى يوم القيامة ومحاسبته على ذلك المال الكثير الذي صُرِف من أجل تحقيق متعته ، فيبكي بكاء شديدًا مع مابذله من تلك الصدقات العظيمة التي رجا بها محو ما اكتسبه من ذلك الإثم ، فلما دخل عليه العالم الكبير أبو يوسف القاضي أبان له أن ما يأكله الناس لايعدُّ من

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٥ .

الإسراف ، وأن أمير المؤمنين قد حصل له الثواب بذلك وبما تصدق من ذلك المال الكثير ، وبما حصل له من الخشية والخوف من الله تعالى ذلك اليوم ، فسُرِّي عنه وزال عنه الكرب والغم ، لأنه عظيم الثقة بالقاضي أبي يوسف في دينه وعلمه .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان ما يتصف به أمير المؤمنين هارون الرشيد من التواضع والخشية: وقد استدعَى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن خازم ليسمع منه الحديث ، قال أبو معاوية : ماذكرت عنده حديثا إلا قال : صلى الله وسلم على سيدي ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى ، وأكلت عنده يوما ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء عليّ وأنا لا أراه ، ثم قال : يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا ، قال : يصب عليك أمير المؤمنين ، قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنما أردت تعظيم العلم [1] .

فهذا موقف كبير من أمير المؤمنين هارون الرشيد في تعظيم

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٣ – ٢٢٤ .

العلم الديني واحترام أهله ، وهذا دليل على نبله ورجاحة عقله ، كما أن بكاءه من خشية الله دليل على حضور قلبه مع الله جل وعلا .

قال الحافظ ابن كثير : وحدثه أبو معاوية يوما عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا ، وقال : أتعترض على الحديث ؟! عليَّ بالنِّطع والسيف ، فأُحضِر ذلك، فقام الناس يشفعون فيه ، فقال الرشيد : هذه زندقة،ثم أمر بسجنه وأقسم أن لايخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ماقال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها ، فأطلقه [1] .

وهذه غيرة عظيمة من أمير المؤمنين هارون الرشيد على حرمات الدين ، وغضب لله تعالى يدل على قوة إيمانه ، كما يدل ذلك على غزارة علمه،وقد حكم على صاحب ذلك السؤال بالزندقة مع أنه عمه وأراد

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٤ .

قتله لولا شفاعة الناس فيه ، ثم لما كان يعرف بأن عمه ليس ممن يُتَّهمون في دينهم فإنه قد خطر له بأنه حمل تلك الكلمة عن بعض الزنادقة فأقسم أن لايخرجه من السجن حتى يخبره بمن ألقى إليه ذلك الاعتراض ، وهذا اهتمام منه بتتبع الزنادقة والتحري عنهم ، وقد كان هناك اهتمام كبير من خلفاء العصر العباسي الأول بالبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم وإقامة الحد عليهم .

والحديث المذكور في الخبر هو ما أخرجه الشيخان رحمهما الله من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى فقال له موسى : يا آدم أنت أبونا ، خَيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، ثلاثا» [(١)] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٦١٤ ، كتاب القدر (١١/ ٥٠٥) .
صحيح مسلم ، رقم ٢٦٥٢ ، كتاب القدر (ص ٢٠٤٢) .

من مواقف وكيع بن الجراح رحمه الله

لقد أُثِر عن العلماء أخبار كثيرة تدل على اهتمامهم بتطبيق التوجيهات والوصايا النبوية، واشفاقهم من التقصير في هذا الأمر .

ومن أمثلة ذلك مارواه يحيى بن معين قال : سمعت وكيعًا [1] يقول: وأي يوم لنا من الموت؟ورأيته أخذ في كتاب«الزهد»يقرأُه ، فلما بلغ حديثًا منه ترك الكتاب ، ثم قام فلم يحدث، فلما كان من الغد وأخذ فيه بلغ ذلك المكان قام أيضًا ولم يحدث حتى صنع ذلك ثلاثة أيام .

قال عباس الراوي عن يحيى بن معين :قلت ليحيى:وأي حديث هو؟ قال: حديث «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » [2] .

وهكذا تأثر هذا الإمام من قراءة هذا الحديث ، وذلك لأنه وأمثاله من العلماء الربانيين ينظرون إلى العمل مع العلم ، فإذا شعروا بأنهم علموا شيئا لم يطبقوه أدركتهم الخشية من الله تعالى فظهر ذلك

---

(١) هو وكيع بن الجراح الرؤاسي .

(٢) تاريخ ابن معين / ٦٣١ – ٦٣٢ ، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٩ .

في سلوكهم .

وحيث إن هذا الحديث يوصي بالزهد في الدنيا ، ويضع حدا للزهد يجعل المسلم يسير في إقامته وكأنه مسافر فإنه قلَّما يصل المسلم إلى تطبيق ذلك ، فلما قرأ وكيع هذا الحديث وقارن بين مدلوله وبين حاله مع ماهو فيه من الزهد المعروف رأى أنه لم يجعل متاعه في حياته كمتاع المسافر وأدركه الخوف من الله تعالى .

وكان وكيع مشهورًا بكثرة الصلاة والصوم ، حتى وصلت شهرته بالعبادة إلى الحجاز وهو في العراق ، وجرى له مع الفضيل بن عياض خبر في بدايته طرافة وفي نهايته حكمة ، يقول سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة وكان سمينا فقال له الفضيل بن عياض : ماهذا السِّمَن وأنت راهب العراق ؟ قال : مِنْ فَرَحِي بالإسلام ، فأفحمه [1] .

فهذا جواب حكيم وسديد ، وذلك لأن الإنسان إذا غمره

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٥٦ .

الفرح غمرته السعادة ، وإذا كان سعيدًا في حياته لم يتعرض للأمراض المنهكة التي تضعف الجسم ، وليس هناك من الفرح عند وكيع أعظم من نعمة الهداية إلى الإسلام ، ولما كان فرحه بهذه الهداية عظيما فإن ذلك قد أنساه كل هموم الدنيا ومشكلاتها فلم تَعُدْ تلك الهموم والمشكلات تؤثر على جسمه .

وهذا الجواب النيِّر من الإمام وكيع رحمه الله تعالى يصِّور مشاعر المسلمين الصادقين الذين تغمرهم الفرحة الكبرى كلما تذكروا تحلِّيهم بنعمة الهداية إلى هذا الدين العظيم .

وكما ذكر وكيع من أن تلبُّسه بالصحة بسب فرحه بالإسلام فإن مايتمتع به المسلمون الذين يعتزون بإسلامهم من حياة الطمأنينة والصبر الجميل على الأذى والبراءة من الأمراض النفسية .. إن ذلك راجع إلى شعورهم بالسعادة الكبرى لإيمانهم بالإسلام وركونهم في كل الملمات إلى قدرة خالق الكون جل وعلا .

وهذا الذي ذكره وكيع يُعدُّ تعبيرًا عن أهم أسباب السعادة الروحية الجالبة لصحة البدن، ولايعني ذلك اطِّرادَ هذا الأمر في كل

المسلمين الصادقين ، فقد يصيب الله تعالى العبد بالأمراض ليمحو بها خطاياه وليتقوَّى إيمانه بالرجوع إليه تعالى ولغير ذلك من الحكم الجليلة ، ولكن العبد المؤمن قد يُمرض جسمه ولكن لاتُمرض نفسه لإيمانه بقضاء الله تعالى وقدره .

من مواقف زكريا بن عدي رحمه الله

من ذلك ماذكره ابن أبي حاتم :أن زكريا بن عدي اشتكت عينه، فأتاه إنسان بكحل ، فقال: أنت ممن يسمع الحديث ؟ قال : نعم ، فأبى أن يأخذه [1] .

فحيث علم زكريا بن عدي أن ذلك الرجل ممن يأخذون عنه الحديث خشي أن يكون أخذ الكحل من تلميذه من باب أخذ الأجرة على الحديث .

فهذا موقف جليل من مواقف الورع ، فعلى الرغم من أن زكريا ابن عدي كان بحاجة إلى ذلك الكحل وعلى الرغم من كونه شيئا يسيرا فإنه أبى أن يأخذه من تلميذه ، لأنه عَدَّ ذلك من الشبهات ، والمتقون يحرصون على اجتناب الشبهات كما يحرصون على اجتناب المحرمات .

---

(١) الجرح والتعديل ٨/ ٤٥٦ .

من مواقف بشر بن الحارث رحمه الله

من المواقف في الورع مارُوي عن بشر بن الحارث الملقَّب بالحافي أن رجلا جاء إليه وقبَّله وجعل يقول : ياسيدي أبا نصر ، فلما ذهب قال بشر لأصحابه : رجل أحب رجلا على خير توهمه ، لعل المُحِبَّ قد نجا والمحبوبَ لايُدرَى ماحاله (1) .

وعن أيوب العطار أنه سمع بشرًا يقول : حدثنا حماد بن زيد .. ثم قال : أستغفر الله إن لِذِكْر الإسناد في القلب خيلاء (2) .

ورُوِي عنه أنه قال : ما اتقى الله من أحب الشهرة (3) .

فهذه نماذج من الورع المبني على سرعة التذكر والدقة في محاسبة النفس .

والذكر القلبي من أعظم النعم على المسلم ، فصاحب هذا الذكر

---

(1) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٥ .

(2) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٠ – ٤٧١ .

(3) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٦ .

كلما خطر في قلبه خاطر أو أراد أن يقوم بعمل أو خاطبه أحد تذكر الله جل وعلا حالاً وتذكر الحساب في الآخرة والجنة والنار فيكون كلامه وسلوكه مبنيًّا على هذا التذكر ، وقلما يَضِلّ أو يَزِلّ من كان قلبه عامرًا بذكر الله تعالى واليوم الآخر ، لأنه مستمر في محاسبة نفسه في الدنيا حتى يلقى الله تعالى وقد محَّص نفسه وطهرها من المخالفات .

وفي بشر بن الحارث يقول إبراهيم الحربي : ما أخرجَتْ بغداد أتم عقلاً من بشر ولاَ أحفظ للسانه ، كان في كل شعرة منه عقل ، وَطِئ الناس عقبه خمسين سنة ماعُرِف له غِيبة لمسلم، مارأيت أفضل منه [(١)] .

وهذا كلام جيد حيث وصفه بكمال العقل وجعل مسوغ ذلك كونَه راقب نفسه مراقبة تامة وسار بها على صراط مستقيم متجنبًا مواقع الزلل ، ولا أدلَّ على ذلك من كونه عاش خمسين سنة متبوعًا من الناس ولم يُعرف له غيبة لمسلم .

---

(١)   سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢ .

ومن كلماته الراشدة التي تدل على تفوقه في هذا المجال قوله « إذا أعجبك الكلام فاصْمُتْ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم » [1] .

فهذا دليل على الاستسلام التام لله تعالى والبراءة من حظ النفس، فالكلام والصمت يحكمهما ابتغاء رضوان الله تعالى لارغبة النفس ، فقد يكون الكلام في موطن أفضل لأنه يطهر النفس من الرياء وقد يكون الصمت أفضل لهذا السبب نفسه .

وذكر الحافظ ابن كثير خبر أخواته التقيات فقال : وذكر الخطيب أنه كان له أخواتٌ ثلاث وهن : مُخَّة ، ومُضغة وزبدة ، وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعا أيضًا ، ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربَّما طَفئ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر ، فهل عليَّ عند البيع أن أُميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فميِّزي للمشتري ، وقالت له مرة إحداهن : ربما تمرُّ بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢ .

فخلِّصني من ذلك ، فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لَمَّا اشتبه عليها معرفة ذلك المقدار ،وسألته عن أنين المريض أَفِيه شكوى؟ قال: لا ، إنما هو شكوى إلى الله عز وجل ، ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يابني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة ! قال عبد الله : فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته مُخَّة [1] .

فهؤلاء الأخوات الثلاث الطاهرات نشأن في بيت العالم العابد الزاهد بشر بن الحارث فرضعن من لبان الورع ، ولبِسْن من لباس التقوى ، فكانت فيهن تلك الاستقامة التي تمثلت في العفة والورع والخشية ، فحينما اشتبه الأمر عليهن فيما إذا غزلن تحت ضوء القمر أو تحت مشاعل الآخرين التي يصل ضوؤها إلى بيتهن تورعن عن ذلك الكسب لورود الشبهة عليهن من ذلك، وهذا دليل على الحرص الأكيد لدى هؤلاء الأخوات على تنقية موارد الكسب من أي شبهة .

ونظرًا لسمو هذا التفكير ودلالته الواضحة على قوة إيمان

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣١١ .

صاحبه وعمق يقينه فإن الإمام أحمد قد اهتم بمعرفة تلك الفتاة التي أَلْقَتْ عليه تلك الأسئلة .

وإذا كان الإنسان دقيق المحاسبة لنفسه شديد الحرص على تخليص كسبه من الشوائب فإنه لايُخْشَى عليه – بإذن الله تعالى – من أن يصرف ماله في طريق المحرمات أو الشبهات ، فإن الذي يحرص على دخول الدرهم الحلال يكون أحرص على خروجه في حلال .

من مواقف يوسف بن معدان رحمه الله

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة محمد بن يوسف بن معدان : وكان لايشتري خبزه من خباز واحد ، ولابَقْلَه من بقال واحد ، كان لايشتري إلا ممن لايعرفه ، يقول : أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه [1] .

فهذه صورة من صور الورع ، حيث كان هذا العابد الزاهد يتورع عن شراء حوائجه ممن يعرفونه خشية أن يراعوه في الثمن لصلاحه وتقواه فيكون قد أكل الدنيا بدينه .

وهذا مذهب جليل في الورع سبقت له أمثلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٢ .

من مواقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

من أمثلة الخوف من الله تعالى وخشيته ماجاء في وصف الإمام أحمد بن حنبل، قال المروذي: كان أبو عبد الله إذا ذَكر الموت خنقته العبرة ، وكان يقول : الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب ، وإذا ذكرت الموت هان عليّ كل أمر الدنيا ، إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنها أيام قلائل ، ما أَعدِل بالفقر شيئًا ، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لايكون لي ذِكْر[1] .

فهذا الإمام الجليل على ما اشتهر من الإيمان القوي والعمل الصالح والورع الشديد يُؤَثِّر عليه ذكر الموت حتى تخنقه العبرة ، لامن التأسف على فراق الدنيا ، فليس من أهل هذا الشأن ، وإنما خشيةً مما بعد الموت من الحساب والجزاء ، فهو لقوة يقينه ومعرفته بالله تعالى قد عظمت خشيته واشتد إشفاقه،حتى تضاءل في إحساسه عمله الصالح،وتضخم في ضميره الشعور بالتقصير وفوات مايجب

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٦ .

من الكمال،ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

ومن فزعه من الدنيا كان يهرب من الشهرة ، ولكنها كانت تلاحقه ، فكان الناس يتكاثرون عليه ، ويُكثرون من مدحه ، وكان يخشى على دينه من ذلك ، ولكن إذا كانت الخشية من الله تعالى تلازم المسلم فإنه بإذن الله تعالى يكون في حصانة من هذا المرض الخطير من أمراض القلوب ، ألا وهو حب الجاه والسمعة .

ومن أخباره في الورع مارُوِي عن سليمان الشاذكوني قال في الثناء على الإمام أحمد بن حنبل :لقد حضرت من ورعه شيئا بمكة: أنه أرهن سطلاً عند فامِيّ[1] فأخذ منه شيئًا لِيُقوِّته فجاء فأعطاه فِكَاكه ، فأخرج إليه سطلين ، فقال : انظر أيهما سطلك ؟ فقال : لا أدري أنت في حل منه وما أعطيتك ، ولم يأخذه ، قال الفامي : والله إنه لسطله ، وإنما أردت أن أمتحنه فيه[2] .

---

(١) أي بائع الفوم أي الحِمْص ويطلق على الحنطة وغيرها من الحبوب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٣ .

فهذا مثال جيد في الورع وترك الشبهات ، فحينما اشتبه الحلال بالحرام عند الإمام أحمد ترك الحلال خشية الوقوع في الحرام، وكان من شدة ورعه أنه ترك السطلين حالاً ولم ينتظر حتى يبحث الفامي ويتأكد من سطله خشية أن يعيِّن له أحدهما وقد يكون غيره .

ومما جاء في ورع الإمام أحمد بن حنبل ماذكره أحمد بن محمد التستري قال: ذكروا أن أحمد بن حنبل أتى عليه ثلاثة أيام ماطَعِم فيها فبعث إلى صديق له فاقترض منه دقيقا ، فجهزوه بسرعة، فقال: كيف ذا ؟ قالوا : تنور صالح مُسْجَر ، فخبزنا فيه ، فقال : ارفعوا ، وأمر بسدِّ باب بينه وبين صالح .

ذكره الذهبي وقال : لكونه أخذ جائزة المتوكل [1] .

وهكذا تورع الإمام أحمد عن أكل الخبز الذي خُبِز في تنور ولده صالح لكونه قبل جائزة الخليفة ، ولعله يعتقد بأن مصدر المال

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

قد اختلط بحرام فيكون مشتبها فيه ، فامتنع من الاستفادة منه بأي نوع وإن كان في هذا الشيء البسيط مع شدة احتياجه للطعام ، فما هذه النفس القوية التي تحمل الجسم على تحمُّل هذه الشدائد ؟! وماهذا الإيمان القوي الذي يتحكم في السلوك هذا التحكم المتقن؟!

ومن أخباره في الورع والعفة ماذكره المرُّوذي قال : سمعت أبا الفوارس،ساكنَ أبي عبد الله[1] يقول : قال لي أبو عبد الله : يامحمد أَلْقَى الصبي المقراض في البئر ، فنـزلت فأخرجته فكتب لي إلى البقال : أعطه نصف درهم ، قلت : هذا لايسوى قيراط ، والله لا أخذته ، قال : فلما كان بَعْدُ دعاني فقال : كم عليك من الكراء ؟ فقلت : ثلاثة أشهر ، قال : أنت في حِلٍّ ، ثم قال أبو بكر الخلال : فاعتبروا يا أولي الألباب والعلم،هل تجدون أحدًا بلغكم عنه هذه الأخلاق؟![2].

---

(١) يعني الإمام أحمد ، أي الذي يسكن في بيته بالأجرة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٩ .

نعم إنها أخلاق عالية في العفة والسماحة والكرم ، فعلى الرغم من أن هذا الرجل الذي قدَّم هذه الخدمة للإمام أحمد قد أبى أن يأخذ مقابلها وأقسم على ذلك فإن أبا عبد الله قد أهمه هذا الأمر ، وقد يكون فكر بأن ذلك الرجل إنما تعفف عن أخذ الأجرة إجلالاً له ، وأنه لو قدَّمها له غيره لأخذها ، وكأنه لايريد أن يخرج من هذه الدنيا ولِأحدٍ عليه حق وإن كان من باب بذل المعروف وقد سمحت نفس باذله به ، لأن الإمام أحمد له مع نفسه سياسة شديدة في هذا الجانب، وهو أحرص على صحيفته يوم القيامة أن تدنس ولو بنقطة ضئيلة من السواد منه على بقاء كل مايملك من الدنيا .

ومن أخبار الإمام أحمد في الزهد والقناعة مارُوِي عن الحافظ إسحاق بن راهويه أنه قال: لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة ، فأكْرَى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء، وعرض عليه أصحابه المواساة فلم يأخذ[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

وهذا يُعدُّ تواضعا من الإمام أحمد حيث عمل بالأجرة مع الجمالين ليسد بذلك حاجته الضرورية .

وعدم قبوله مواساة إخوانه دليل على شدة تحريه في الأمور المالية ، فقد كان شديد الحذر من المشتبهات التي لايقطع بإباحتها ، فكان يخشى أن يكون في أموال الناس ماهو كذلك ، ومن طريقته أنه يغلِّب جانب الحرمة أو الكراهة في الأمور المشتبهة احتياطًا لدينه .

وكما كان الإمام أحمد زاهدًا في المال فإنه كان زاهدًا في الجاه ، يقول الحافظ يحيى بن معين: مارأيت مثل أحمد ، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مماكان فيه من الخير [1] .

ويريد بالخير ماهو فيه من السمعة الدينية العالية ، ولعله أراد أيضًا رفعة النسب حيث كان أحمد بن حنبل من العرب ، وأكثر العلماء الذين كانوا معه من الموالي كما جاء في بعض الأخبار.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

ومن ذلك ماذكره الخَلاَّل قال : حدثنا المَرُّوذِي قال: قلت لأبي عبد الله : قال لي رجل: مِنْ هنا إلى بلاد الترك يدعون لك [1] ، فكيف تؤدي شكر ما أنعم الله عليك ومابث لك في الناس؟ قال: أسأل الله أن لايجعلنا مرائين [2] .

في هذا الخبر بيان ماكان يتصف به الإمام أحمد من اليقين الراسخ والفقه العميق حيث لم ينخدع بثناء الناس عليه ، بل ازداد بذلك إيمانًا وخشية لله تعالى .

وقال المرُّوذي : أَدخلتُ إبراهيم الحُصْريَّ على أبي عبد الله – وكان رجلا صالحا ، فقال : إني أمي رأت لك منامًا هو كذا وكذا ، وذَكَرَتِ الجنة ، فقال : يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا ، وخرج لسفك الدماء ، وقال : الرؤيا تسر

(١) يعني للإمام أحمد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٢ .

المؤمن ولاتغره[1] .

نعم فالرؤيا الصالحة تسر المؤمن بما فيها من بشرى الخير ، وقد سمى النبي ﷺ رُؤَى الخير مبشرات، ولاتغره بالتكاسل عن العمل الصالح أو التساهل في مقارفة الأمور التي نهى عنها الإسلام، بل تدفعه إلى المزيد من التقوى ليكون أهلاً لما بُشِّر به .

وقال عبد الله بن أحمد:سمعت أبي يقول :وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافا لا علي ولا لي[2] .

وهذا يعني أن خشية الله تعالى غلبت عليه فتمنى أن ينجو من عذابه وإن فاته ثوابه ، وهذا من دلائل تعظيم الله تعالى وشدة استحضار أهوال اليوم الآخر ، وقد رُويت هذه الكلمات عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبيل وفاته .

وقال عباس الدُّوري : حدثنا علي بن أبي فَزَارَة جارُنا قال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٧ .

كانت أمي مقعدة من نحو عشرين سنة ، فقالت لي يومًا : اذهب إلى أحمد بن حنبل فسله أن يدعو لي ، فأتيت فدققت عليه وهو في دهليزه ، فقال : من هذا ؟ قلت : رجل سألتني أمي وهي مقعدة أن أسألك الدعاء، فسمعت كلامه كلام مغضب ، فقال : نحن أحوج أن تدعو الله لنا ، فولَّيت منصرفا ، فخرجت عجوز فقالت:قد تركته يدعو لها،فجئت إلى بيتنا ودققت الباب فخرجَتْ أمي على رجليها تمشي.

ذكره الإمام الذهبي وقال : هذه الواقعة نقلها ثقتان عن عباس [1] .

فهذا مثل من تواضع الإمام أحمد الجمّ ، والتهوين من شأن نفسه ، ومحاولة القضاء على أسباب الشرف الدنيوي ، فقد استقبل ولد تلك المرأة بجفاء وأظهر الغضب من طلبه ذلك ، ولكنه بعد ذلك دعا لتلك المرأة في خلوته وما علم أن تلك العجوز التي نقلت

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١١ .

خبره تسمع دعاءه، فهو قد تذمَّمَ من حبس المعروف عن المسلمين فدعا لتلك المرأة المقعدة ، ولكنه لايريد من الناس أن يرفعوا من شأنه وأن يُكثروا من الثناء عليه فجعل دعاءه سرّا ، ليبلغ مقصده من غير أن يترتب عليه شيء مما يحذره .

ولقد بلغ هذا الإمام بذلك درجات عليا في مقام التوحيد ، وهذا من أهم أسباب إجابة الله تعالى دعاءه .

وقال صالح بن أحمد : كان أبي إذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها[1] .

وهذه دعوة من الإمام أحمد إلى عدم الاغترار بالعمل ، فإن العبرة ليست بالعمل الحاضر وإنما هي بما يَخْتِم به الإنسان حياته ، والذي يحمل هذا الشعور يكون لديه رصيد من الحصانة الإيمانية يمنعه – بإذن الله تعالى – من الانحراف عن الطريق المستقيم ، لأنه يحمل معه في فكره دائمًا الحذرَ من سوء الخاتمة ، ومَن حذِر من شيء

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٦ .

كان أجدر بالوقاية منه .

وقال محمد بن الحسن بن هارون:رأيت أبا عبد الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد .

ذكره الإمام الذهبي وقال : إيثار الخمول والتواضع وكثرةُ الوجل من علامات التقوى والفلاح [1] .

أقول : وإن هذا التواضع يُعدُّ من العواصم الواقية من عُجْب النفس ، فإن كثرة الأتباع قد يكونون سببا في ابتلاء المتبوع بالغرور .

قال المرُّوذي : قلت لأبي عبد الله : ما أكثر الداعي لك ! قال : أخاف أن يكون استدراجا، بأي شيء هذا ؟ وقلت له : قدم رجل من طرسوس فقال : كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل رفعوا أصواتهم بالدعاء : ادعوا لأبي عبد الله ، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عن أبي عبد الله ، ولقد رُمي عنه بحجر والعلج على الحصن متترس بدرقة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٦ .

فذهب برأسه وبالدرقة ، قال : فتغيرَّ وجه أبي عبد الله وقال : ليته لايكون استدراجا ، قلت : كلاَّ[1] .

هذا الخبر يصور عِظَم منـزلة الإمام أحمد في قلوب معاصريه ، حيث يدعوا له المجاهدون في ليالي الجهاد ، ويَتيَمَّنُون به في قتالهم ، كما يبين عِظَم منـزلته عند الله تعالى حيث وَفَّق المجاهدين لإصابة الهدف حينما جعلوا السهم باسمه .

وفيه بيان لتواضع الإمام أحمد الشديد وعِظَمِ خشيته من الله تعالى حيث خاف من أن يكون ما انتشر له من الذكر الحسن استدراجًا من الله تعالى .

لقد كان المظنون بعامة الناس أن يظهر على وجوههم الفرح حينما يساق إليهم مثل هذا الخبر ، لكن الإمام أحمد تغير وجهه من الخوف ، لأنه تذكر استدراج الله تعالى عبادَه ، فغلَّب جانب الحذر منه على الفرح بما يبشِّر برضاه عنه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٠ .

ومن ذلك ما ذكره الخلال عن محمد بن علي بن بحر قال : سمعت « حُسْنَ » أمَّ ولد أبي عبد الله – يعني الإمام أحمد بن حنبل – تقول : قلت لمولاي : اصرف فَرْدَ خلخالي ، قال: وتطيب نفسك ؟ قلت : نعم ، فبِيعَ بثمانية دنانير ونصف ، وفرَّقتها وقت حملي ، فلما ولدت حَسَنًا أعطى مولاتي كرامة درهما ، فقال : اشتري بهذا رأسًا فجاءت به فأكلنا ، فقال : ياحُسْنُ ما أملك غير هذا الدرهم ، قالت : وكان إذا لم يكن عنده شيء فرح يومه .

قالت أم ولده حُسْن : ولما خرج إلى « سرَّ من رأى » كنت قد غزلت غزلاً لينا ، وعملت ثوبا حسنا ، فلما قدم أخرجته إليه ، وكنت قد أعطيت كراءه خمسة عشر درهما من الغلَّة ، فلما نظر إليه قال : ما أريده ، قلت : يامولاي عندي غير هذا ، فدفعت الثوب إلى «فورانَ» فباعه باثنين وأربعين درهما ، وغزلت ثوبا كبيرا ، فقال : لاتقطعيه ، دعيه ، فكان كفنه (1) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣٢-٣٣٣ .

فهذا مثل بليغ في القناعة باليسير والزهد في متاع الدنيا ، إنَّ تجرد النفس من التعلق بالدنيا دليل على تعلقها بما هو أعظم من ذلك ، فإن النفوس مجبولة على حب الدنيا ، ولاترتفع بتفكيرها عن ذلك إلا بدافع من هيمنة المعاني السامية على النفس ، وقد كان تفكير الإمام أحمد محصورًا في بلوغ رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة ، فأصبح يفرح حينما يخلو بيته من المال حتى لاينشغل به عن ذلك الهدف السامي .

ولقد أثَّر على من حوله بزهده وقناعته حتى جاءت أم ولده بشيء من حُليِّها فتصدقت بثمنه خدمة لذلك الهدف السامي الذي رسَّخه الإمام أحمد في نفوس من حوله .

ومن ذلك ما رُوِي عن إسماعيل الديلمي قال : كنت في البيت مع أحمد بن حنبل فإذا نحن بداقٍّ يدق الباب ، قال : فخرجت إليه فإذا أنا بفتى عليه أطمار شَعْر ، فقلت: ماحاجتك؟ قال: أريد أحمد بن حنبل ، قال: فدخلت إليه فقلت : يا أبا عبد الله بالباب شابٌّ عليه أطمار شعر يطلبك ، قال : فخرج إليه ، فسلم عليه ، فقال له : يا أبا

عبد الله أخبرني ما الزهد في الدنيا؟ فقال له أحمد ؟ حدثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قِصَر الأمل ، فقال له : يا أبا عبد الله صفه لي – قال : وكان الفتى قائما في الشمس والفيء بين يديه – قال : هو أن لاتبلغ من الشمس إلى الفيء ، قال : ثم ذهب ليولِّي ، قال فقال له أحمد : قف ، قال : فدخل فأخرج له صرة فدفعها إليه ، فقال : ياأبا عبدالله من لايبلغ من الشمس إلى الفيء أيش يعمل بهذه ، ثم تركه وولَّى (١) .

وهكذا روى الإمام أحمد بيان الزهد عن الإمام الزهري بهذه العبارة القصيرة ، ولكنها كانت كافية شافية ، فإن من رزُقِ قصر الأمل في البقاء في الحياة الدنيا لاتطمح نفسه للتوسع في كماليات الحياة لأنه سيكون مشغولا بالعمل لما بعد الموت ولن يخطط لأعمال كبيرة في حياة قصيرة .

إن كثيراً من المسلمين الذين يبالغون في الاهتمام بأمور الدنيا إنما

---

(١) طبقات الشافعية ١/ ١٠٨ .

خدعهم طول الأمل بالبقاء على قيد الحياة ، وقد يفاجِيء بعضهم الأجل في وقت سريع لم يكن يتوقعه ولا قريبا منه .

وعبارة الإمام الزهري ليست بيانا لمعنى الزهد ، وإنما هي بيان لأهم البواعث التي تبعث على الزهد، ولقد كان الإمام أحمد يعلم أن ذلك الشاب يعرف معنى الزهد ، وأنه إنما يريد معرفة أهم أمر يعينه عليه ، فكان جواب الإمام أحمد مناسبا لحال السائل .

ومن ذلك ما أخرجه القاضي محمد بن أبي يعلى من حديث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : مرَّت بنا جنازة ونحن قعود على مسجد أبي ، فقال أبي : ما كانت صَنْعَةُ صاحب الجنازة؟ قالوا: كان يبيع على الطريق ، قال : في فنائه أو في فناء غيره ؟ قالوا : في فناء غيره، قال: عَزَّ عليّ عَزَّ عليّ ، إن كان فناء يتيم أو غيره فقد ذهبت أيامه عُطلا ، ثم قال : قم نصلي عليه عسى الله أن يكفِّر عنه سيئاته ، قال : فكبَّر عليه أربع تكبيرات ، ثم حملناه إلى قبره ودفنَّاه ، ونام أبي تلك الليلة وهو مُغتَمٌّ به ، فإذا نحن بامرأة من بعض جيراننا جاءت إلى أبي، فقالت : يا أبا عبد الله ألا أبشرك بشارة ؟ فقال لها : قولي يامباركة ،

أنت امرأة صالحة ، قالت : نمت البارحة فرأيت صاحب الجنازة الذي مررتَ معه وهو يجري في الجنة جَرْيًا وعليه حلَّتان خضراوان ، فقلت له : مافعل الله بك؟ قال : غضبان عليَّ وقت خروجي روحي ، فصلَّى علي أحمد بن حنبل فغفر ذنوبي ومتَّعني بالجنة [1] .

في هذا الخبر مثل من إحساس الإمام أحمد الدقيق نحو الحلال والحرام والشبهات ، فإنه لمَّا علم أن صاحب الجنازة يستعمل الطريق العام للتجارة خشي أن يكون اعتدى على ما يخص بعض الجيران من المنافع التي تتبع البيوت فاهتمَّ بالدعاء له ، وقد أفادت تلك الرؤيا الصالحة بأن الله تعالى غفر لذلك التاجر بسبب دعاء الإمام أحمد له .

وهذا الذي لاحظه الإمام أحمد يغفل عنه بعض المسلمين ، حيث ينافسون جيرانهم على المنافع التي تتبع دورهم ، وهم أولى بها من غيرهم ، وبهذا يقع هؤلاء في آثام لم يحسبوا لها حسابا .

ويمكن التمثيل لذلك فيما يتعلق بهذا العصر بالاستفادة من ظل

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/ ٥٨ .

البيوت في إيقاف السيارات فصاحب البيت أولى من غيره بذلك .

وإن من خير نتائج الورع أن صاحبه يكون من عباد الله المخلصين كما ذكر الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن الإمام أحمد قال : حين احتُضِر أبي جعل يُكثر أن يقول : لا ، بَعْدْ ،لا ، بعد، فقلت: يا أبة ماهذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال : يابني إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاضٌّ على إصبعه وهو يقول : فُتَّنِي يا أحمد ! فأقول : لا ، بعد ، لا ، بعد .

قال الحافظ ابن كثير : يعني لايفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد ، كما جاء في بعض الأحاديث « قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ماأزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » [1] .

فالإمام أحمد بن حنبل ممن دحروا الشيطان واستصغروه وكادوه بإيمانهم الراسخ وعملهم الصالح ، ونجد أن الشيطان – كما جاء في هذا الخبر – تبدو عليه الحسرة إذا حضرت الوفاة مؤمنا تقيّا صالحا

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٥ .

مُخْلَصًا ، لأنه يكون قد فاته إغواؤه ، وقد كتب الله عليه أن لاسبيل له على إغواء عباد الله المخلَصين ، وقد سلَّم بذلك أمام الله تعالى كما جاء في قوله جل وعلا في حكاية قولة إبليس ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠] .

ونجد فقه الإمام أحمد حينما قال لإبليس « لا ،بعد لا بعد » يعني أنني أيها الشيطان لن أسْلَم منك مادامت روحي في جسدي .

وإذا كان الشيطان قد قال هذه الكلمة على سبيل التحسر والألم فإنها بالنسبة للإمام أحمد شهادة تزكية من عدو لدود،والحق ماشهدت به الأعداء .

من مواقف سَرِيّ السَّقطي رحمه الله

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة « سَرِي السَّقطي »

قال : وكان عنده مرة لوز فساومه رجل على الكُرِّ [1] بثلاثة وستين دينارا ، ثم ذهب الرجل فإذا اللوز يساوي : الكرُّ تسعين دينارا ، فقال له [يعني الرجل]:إني أشتري منك الكر بتسعين دينارا ، فقال له : إني إنما ساومتك بثلاثة وستين دينارا وإني لا أبيعه إلا بذلك ، فقال الرجل : أنا اشتري منك بتسعين دينارا ، فقال : لا أبيعك هو إلا بما ساومتك عليه ، فقال له الرجل : إن من النصح أن لا أشتري منك إلا بتسعين دينارا ، وذهب فلم يشتر منه [2] .

فهذا مثال جيد في العفة والورع والزهد في الدنيا ، ولقد كان كل من البائع والمشتري يتصفان بهذه الصفات العالية ، فهما مثالان للتربية الإسلامية ، فلقد كان بإمكان كل واحد منهما أن يوافق صاحبه فيما

---

(١) هو نوع من المكاييل الكبيرة .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٥ .

عرض عليه ويأخذ المبلغ الكبير ، لكنهما كانا يَعدَّان المبلغ الكبير هو في أن يكسبا حلالاً وإن قلَّ ، وأَنْ يُعفَّا أنفسهما من كل شبهة حاكت في النفس .

من مواقف ابن أبي حاتم رحمه الله

من أخبار العلماء فيما يتعلق بالخشية والخوف من الله تعالى ماذكره الإمام الذهبي من خبر علي بن الحسين بن الجنيد قال : سمعت يحيى بن معين يقول : إنا لنَطْعَن على أقوام لعلهم قد حَطُّوا رحالهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة .

قال الذهبي : لعلها من مائة سنة ، فإن ذلك لايبلغ في أيام يحيى هذا القدر .

قال ابن مَهْرَوَيه : فدخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو يقرأ على الناس كتاب «الجرح والتعديل » فحدثته بهذا فبكى وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب ، وجعل يبكي ، ويستعيدني الحكاية .

قال الذهبي:أصابه على طريق الوجل وخوف العاقبة،وإلا فكلام الناقد الوَرِع في الضعفاء من النصح لدين الله والذَّبِّ عن السنة [1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٨ .

فهذا مثل على الخشية والخوف من الله تعالى كما قال الإمام الذهبي وإلا فإن الحافظ ابن أبي حاتم كان من العبَّاد الورعين ولايُظَنُّ به أن يتجنَّى على أحد من الرواة ، لكنْ لقوة خشيته وشدة خوفه من الله عز وجل تأثر وبكى خشية أن يكون لَحِقَه في دينه شيء من الكلام في الرواة .

فهذه كلمة صدرت من الإمام أبي زكريا يحيى بن معين ، لعله أراد بها الحدَّ من المسارعة في نقد العلماء ،وإلا فهو يعلم ويعلم غيره من علماء الجرح والتعديل أن المخلصين من النُّقَّاد ما أرادوا بنقدهم الحط من شأن الرواة ، وإنما أرادوا الذَّبَّ عن سنة رسول الله ﷺ .

ووصلت هذه الكلمة إلى مسامع عالم رباني بذل حياته في خدمة السنة النبوية ، فيغلب عليه الخوف من الله تعالى ، وتهيمن على قلبه خشيته فيبكي ويسقط الكتاب من يده ، لا لأنه تذكر مظلمة صدرت منه في حق العلماء ،وإنما لغلبة مقام الخوف عليه الذي يغلب مقام تحكيم العقل ، ويجعل صاحبه ينظر إلى الأمر بميزان وجدانه وعاطفته لا بميزان تفكيره ، فيغلبه البكاء من تذكر هول الحساب بغضِّ النظر

عن كونه مُحِقًا في نقده لأولئك الرواة أو مبطلا .

وفي ذلكم المشهد يبدو الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم متين الدين راسخ العقيدة ، حيث غلب على قلبه حالاً مشهد الحساب وأهوال يوم القيامة فنسي في ذكرها مسوغاتِ ذلك النقد ووجوهَ شرعيته .

وإذا كان هذا العالم الجليل وأمثالهُ يخشون الله تعالى ويخافون على دينهم في الكلام على الرواة مع أن هدفهم خدمة السنة النبوية والدفاع عن الدين فكيف بمن ينتهكون أعراض المسلمين ويشوهون سمعتهم لأغراض دنيوية ؟!

من مواقف الإمام البخاري رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ البغدادي من خبر أبي سعيد بكرِ بن منير قال :كان حُمِل إلى محمد بن إسماعيل – يعني الإمام البخاري – بضاعة أنفذها إليه فلان ، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم : انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال: إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بماطلبوا أول مرة ، فدفعها إليهم بما طلبوا – يعني الذين طلبوا أول مرة – ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي [1] .

فهذا مثال عال في العفة والقناعة من الإمام البخاري فقد حاسب نفسه على نية البيع على التجار الأولين الذين ساموا البضاعة بنصف ماسامها به الآخرون،مع أنه لم يتم بينهم عقد ولامجرد وعد بذلك .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١١ – ١٢ .

وهذا الخلق الكريم من لزوم ما لايلزم ابتغاء وجه الله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين وغلبة التفكير بالآخرة على التفكير بالدنيا .

وقال محمد بن أبي حاتم كاتبُ البخاري : وكان لأبي عبد الله – يعني البخاري – غريم قطع عليه مالا كثيرا ، فبلغه أنه قدم «آمل» ونحن عنده بفربر ، فقلنا له : ينبغي أن تعبر – يعني النهر- وتأخذه بمالك ، فقال : ليس لنا أن نروعه .

ثم بلغ غريمَه مكانُه بفربر فخرج على خوارزم ، فقلنا : ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكُشاني عامل آملَ ليكتب إلى خوارزم في أخذه واستخراج حقك منه ، فقال: إنْ أخذت منهم كتابا طمعوا مني في كتاب ، ولست أبيع ديني بدنياي ، فجهدنا ، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره فكتب إلى والي خوارزم .

فلما بلغ أبا عبد الله ذلك وجد وجدا شديدا ، وقال : لاتكونوا أشفق عليَّ من نفسي ، وكتب كتابا،وأردف تلك الكتب بكتب ، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لايتعرض لغريمه إلا بخير.

فرجع غريمه إلى آمل وقصد إلى ناحية مرو ، فاجتمع التجار وأُخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له ، فأراد السلطان التشديد على غريمه ، وكره ذلك أبو عبد الله وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئًا يسيرا ، وكان المال خمسة وعشرين ألفا ، ولم يصل من ذلك المال إلى درهم ولا إلى أكثر منه [1] .

وهكذا رأينا مثلا من سماحة الإمام البخاري وكرمه حتى مع من أساء إليه ، فذلك الرجل الذي أخذ مال أبي عبد الله ولم يقضه إياه يسيء إليه ويتهرب منه ، ولكن أبا عبد الله يحسن إليه، ولا يرضى من تلامذته وأصحابه أن يروعوه .

وقد كان الإمام البخاري بذلك من أبرز المطبقين لسنة رسول الله ﷺ التي عكف على حفظها وتدوينها عمرا طويلا .

ولفتة كريمة من أبي عبد الله حينما عرض عليه أصحابه أن يكتب لوالي آمل ليستخرج له حقه من غريمه ، فتذكَّر أن احتياجه للولاة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٦ .

يجعله أسيرا لهم ، فكلما قضوا له هذه الحاجة فهم قد يريدونه في حاجة من حوائجهم التي قد تشتمل على مخالفة ، ولعله ترجح لديه أن ذلك الوالي من هذا النوع وإلا فإنه ليس ممن يبخلون بالإحسان إذا كان خالصا لوجه الله تعالى وموافقا لشريعته.

فمن أجل ذلك رفض ذلك العرض بشدة ، وساءه تصرف أصحابه حينما كلموا السلطان في أمره ، وكتب الكتب في إبطال مفعول ذلك التصرف حتى لايمسوا غريمه بأي أذى .

فهذا مثل على السماحة وعدم الإلحاح على الدنيا وإن كانت بحق، فكيف بمن يلحون عليها وهي مشوبة بالباطل ؟!

ومن ذلك ماذكره الإمام الذهبي قال:وقال محمد بن أبي حاتم[1] ركبنا يوما إلى الرمي ونحن بِفِرَبْرَ ، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرضة[2] ، فجعلنا نرمي ، وأصاب سهم أبي عبد الله وتد القنطرة التي

---

(١) يعني كاتب الإمام البخاري .

(٢) أي جانب النهر .

على نهر ورَّادة فانشق الوتد ، فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي ، وقال لنا : ارجعوا ، ورجعنا معه إلى المنـزل فقال لي : يا أبا جعفر لي إليك حاجة تقضيها ؟ قلت : أمرك طاعة ، قال : حاجة مهمة – وهو يتنفس الصُّعَداء – فقال لمن معنا : اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ماسألته،فقلت:أَيَّة حاجة هي؟ قال لي : تضمن قضاءها ؟ قلت : نعم على الرأس والعين ، قال : ينبغي أن تصير على صاحب القنطرة فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد فنحبُّ أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه ، وتجعلنا في حِلّ مما كان منا .

وكان صاحب القنطرة حميدَ بن الأخضر الفربري ، فقال لي : أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له : أنت في حل مما كان منك ، وقال : جميع ملكي لك الفداء ، وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي ، فأبلغته رسالته فتهلَّل وجهه واستنار وأظهر سرورا ، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوًا

من خمسمائة حديث ، وتصدق بثلاثمائة درهم [1] .

ففي هذا الخبر مثل من خشية الله تعالى يقدمه الإمام أبو عبد الله البخاري ، فعلى الرغم من كون الخطإ الذي وقع فيه بسيطا فإنه قد أعظم ذلك واغتم منه واهتم للاعتذار منه كثيرا ، وهكذا يكون السلوك النابع من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ، حيث تظل المخالفة ماثلة في الفكر وإن صَغُرَتْ حتى يطمئن صاحبها إلى زوال آثارها .

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أبي عبد الله البخاري بالرماية على الرغم من شَغْل جُلِّ وقته بالعلم، وذلك من تطبيق سنة رسول الله ﷺ في الحث على تعلم الرمي ، فهو يطبّق ذلك كما يطبق سائر الأوامر الشرعية .

وبهذا الاهتمام الجاد يصبح العلماء وطلاب العلم كلهم من الرماة المتفوقين ، فيستطيعون بذلك أن يشاركوا في الجهاد إذا لزم الأمر ، ويصبحوا جيشا احتياطيا للأمة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٣ – ٤٤٤ .

وفي هذا الخبر موقف يشكر لهذا الرجل الذي أظهر احتراما بالغا لعلماء الدين حيث فدى البخاري بكل مايملك ، وهذا دليل على قوة الإيمان وصفاء القلوب .

ومما جاء في هذا المعنى ماذكره كاتب الإمام البخاري ابنُ أبي حاتم قال : ورأيته [يعني الإمام البخاري] استلْقَى على قفاه يوما ونحن بِفِرَبْرَ في تصنيفه كتاب « التفسير» وكان أتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقال له : يا أبا عبد الله سمعتك تقول يوما : إني ما أتيت شيئًا بغير علم قط منذ عقلت،فأي علم في هذا الاستلقاء؟ فقال : أَتْعَبْنا أنفسنا في هذا اليوم ، وهذا ثَغْر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح ، وآخذ أُهُبَة ذلك ، فإن غافَصَنا العدو كان بِنَا حِراك .

قال ابن أبي حاتم : وكان يركب إلى الرمي كثيرًا فما أعلمُني رأيته في طول ماصحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين ، فكان يصيب الهدف

في كل ذلك ، وكان لايُسْبَق [1] .

ومن ذلك ماروواه الخطيب البغدادي من حديث علي بن محمد بن منصور قال: سمعت أبي يقول : كنا في مجلس أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ، فرفع إنسان من لحيته قذاة فطرحها على الأرض، قال : فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس ، فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه ، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها فطرحها على الأرض [2] .

فهذا إحساس قوي من الإمام أبي عبد الله البخاري بحرمة المسجد وقداسته ، فالقذاة وإن كانت مثل الذرة لاينبغي أن تُرَمى في المسجد .

وليس من الحزم والاحتياط للدين أن يتساهل المسلم في سقوط بعض القَذَى منه في المسجد وإن صغر ، اعتمادًا على أن هناك من يقوم

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤ ، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٣ .

بتنظيف المسجد ، فإنَّ تعمد تدنيس المسجد استهانة به.

ومن أمثلة ورع الإمام البخاري ماذكره الحافظ الذهبي من أن بعض أصحابه قال له : يقولون إنك تناولت فلانا ، قال: سبحان الله ماذكرت أحدًا بسوء إلا أن أكون ساهيا ، ومايخرج اسم فلان من صحيفتي يوم القيامة (1) .

فهذا مثل من ورع الإمام البخاري وعفة لسانه ، فما أجمل هذه السيرة الحميدة التي لايذكر فيها صاحبها أنه ذكر أحدا بسوء في يوم من الأيام ، وإن من استطاع أن يملك لسانه فإنه أقدر على حفظ جوارحه الأخرى .

ولقد كان من شدة ورعه أنه كان يقول : ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله تعالى والثناء عليه (2) .

وإن عبدا لايتكلم بكلام الدنيا إلا بعد حمد الله تعالى والثناء عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٥ .

جدير بأن يعصمه الله تعالى من الزلل ، فلن يُخَيِّب الله تعالى رجلا لجأ إليه وقدم رضاه .

ومن مواقف أبي عبد الله الإمام البخاري في التقوى والورع ماذكره عبد الله بن محمد الصارفي قال : كنت عند أبي عبد الله في منـزله فجاءته جارية ، وأرادت دخول المنـزل فعثرت على محبرة بين يديه ، فقال لها : كيف تمشين ؟ قالت : إذا لم يكن طريق كيف أمشي ؟ فبسط يديه وقال لها : اذهبي فقد أعتقتك ، قال : فقيل فيما بعد : يا أبا عبد الله أغضَبتْكَ الجارية ؟ قال: إذا كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت [1] .

فهذا مثل بليغ في الورع والتقوى ، فلمجرد أن الإمام البخاريَّ تكلم على تلك الجارية بذلك الكلام الذي ليس فيه عنف ولاشدة خشي من إثم ذلك فرأى أن الاحتياط لدينه أن يعتق تلك الجارية ، وهذا يدل على فقهه وإيمانه القوي .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٢ .

ومن أخبار الإمام البخاري في الخشية ماذكره محمد بن أبي حاتم قال: وسمعته يقول لأبي معشر الضرير : اجعلني في حل يا أبا معشر ، فقال : من أي شيء ؟ قال: رَوَيْتَ يومًا حديثًا فنظرت إليك وقد أُعجِبْتَ به وأنت تحرك رأسك ويدك فتبسمتُ من ذلك ، قال: أنت في حلٍّ رحمك الله يا أبا عبد الله [1] .

فهذا مثل من الإحساس الدقيق بالمخالفات وإن صغُرت واستصحاب الفكر لها وإن طال أمدها، فإن أصحاب القلوب المعمورة بالإيمان واليقين لاينسون الزلات وإن قلَّ حجمها وماتزال ماثلة في أذهانهم وهم في حال من الندم حتى يتأكدوا من زوال آثارها، وحيث إن المخالفات المتعلقة بحقوق الناس لابد لكمال التوبة منها من عفو أصحاب الحقوق فإن أبا عبد الله البخاري قد اعتذر لأبي معشر الضرير من تلك الابتسامة التي وَقَرَ في نفسه التفكير فيها وخشي من مَغَبَّتها يوم الحساب .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٤ .

من مواقف الإمام الطبري رحمه الله

من أخبار العلماء في باب الورع ماذُكر عن الإمام أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري ، وفي ذلك يقول أبو محمد الفرغاني : حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوَّت منها ، فَسُرِقَتْ فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكُمَّيْ قميصه ، فقال له بعض أصدقائه : تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحى بن خاقان ؟ قال: نعم، فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره مايلبسه فقرَّبه الوزير ورفع مجلسه ، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأله إسلاف رزق شهر ، ففعل وأُدخِل في حجرة التأديب ، وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى ، فلما كتَّبه أخذ الخادم اللوح ، ودخلوا مستبشرين ، فلم تَبْقَ جارية إلا أَهْدَتْ إليه صينية فيها دراهم ودنانير ، فردَّ الجميعَ وقال : قد شورطت على شيء فلا آخذ سواه، فَدَرَى الوزير ذلك ، فأدخلته عليه

وسأله ، فقال: هؤلاء عبيد وهم لايملكون ، فعظُم ذلك في نفسه[1] .

فهذا مثال على الورع والفقه في الدين ، ولابد من اجتماع الأمرين للاستقامة على دين الله تعالى، فالذي يتحلَّى بالورع من غير فقه في الدين قد يقع في الحرام أو في الشبهات وهو لايدري ، والذي يتحلى بالفقه من غير ورع يقسو قلبه فيتساهل في الأمور المشتبهات .

ولقد كان الإمام الطبري جامعًا بين الأمرين ، فدفعه فقهه إلى إدراك الحلال والحرام ، ومنعه ورعه من تجاوز الحلال إلى الحرام أو الشبهات .

ومن ذلك ماذكره الفرغاني قال : كتب إليَّ المراغي قال : لما تقلَّد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء فامتنع ، فعرض عليه المظالم فأَبى ، فعاتبه أصحابه ، وقالوا : لك في هذا ثواب وتُحيي سنةً قد درَسَتْ ، وطمعوا في قبوله المظالم ، فباكروه ليركب معهم لقبول ذلك ، فانتهرهم وقال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧١ – ٢٧٢ .

قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه ، قال : فانصرفنا خجلين [1] .

وهكذا رفض الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قبول ماعُرِض عليه من المال ومن المناصب احتياطا لدينه ، وفضَّل أن يعيش حياة الفقر والتواضع على أن يعيش حياة الغنى والجاه ، وبقي الإمام الطبري إمامًا للأمة الإسلامية على مر الأجيال في العلوم الإسلامية ، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام محمد بن جرير الطبري قال: وقد أراد الخليفة المقتدر في بعض الأيام أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متفقا عليها بين العلماء ، فقيل له : لايقدر على استحضار ذلك إلا محمد بن جرير الطبري فطَلب منه ذلك ، فكتب له فاستدعاه الخليفة إليه وقرَّب منـزلته عنده ، وقال له : سل حاجتك ، فقال : لا حاجة لي ، فقال: لابد أن تسألني حاجة أو شيئا ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٥ .

فقال : أسأل من أمير المؤمنين أن يتقدم أمره إلى الشرطة حتى يمنعوا السُّؤَّال يوم الجمعة أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع ، فأمر الخليفة بذلك [1] .

ففي هذا الخبر بيانٌ لسعة علم الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري وشهادة من أهل عصره بتفوقه العلمي ، وإن الذي يقرأ كتابيه العظيمين في التفسير والتاريخ يظن أنه متفوق في هذين العلمين فقط، ولكن هذا الخبر يبين أنه أفقه علماء عصره ، وكذلك يبتين توسعه في الفقه من كتاباته الفقهية .

كما أن هذا الخبر شاهد على ماكان يتحلى به من الزهد والعفة ، حيث أَبَى أن يأخذ من الخليفة عوضا ماليا عن تلك الفتوى ، وكان طلبه إزالة أمر يَعدُّه من الأمور المنكرة في المساجد ، ألا وهو وجود السُّؤَّال يوم الجمعة في المساجد ، فكان هذا مثالا على اهتمامه بإصلاح مجتمعه وتعظيم بيوت الله تعالى .

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٥٧ .

ولقد ذكر له الحافظ ابن كثير أبياتا رائعة في الزهد وهي قوله :

إذا أعسرتُ لم يعلـم رفيقي   وأستغني فيستغني صـديقـي
حيائي حافظ لي مـاء وجهي   ورفقي فـي مطـالبـتي رفيقي
ولوأني سمحت ببذل وجهي   لكنت إلى الغنى سهل الطريق[1]

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٥٧ .

من مواقف الإمام إبراهيم الحربي رحمه الله

من أخبار القناعة والزهد ماذُكِر عن الإمام إبراهيم الحربي من أن الخليفة المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف فردَّها ، فقيل له : ففرِّقها ، فأبى ، ثم لما مرض سيَّر إليه المعتضد ألف دينار فلم يقبلها، فخاصَمتْه بنته ، فقال : أتخشين إذا مت الفقر ؟ قالت : نعم ، قال : في تلك الزاوية اثنا عشر ألف جزء حديثية ولغوية وغير ذلك كتبتها بخطي ، فبيعي منها كل يوم جزءًا بدرهم وأنفقيه[1] .

وهكذا لم يقبل الإمام الحربي تلك الأعطيات على الرغم من كونه فقيرا ، ويعيش تحت ضغط مطالب الأسرة .

ولقد وَجد في كتبه متنفسًا يَخْرج به من إحراج بنته التي خافت على مستقبلها الدنيوي بعده، حيث أفادها بأنها ستستغني ببيع كتبه بعد موته سنين عديدة ، ولو شاء أن يستمتع بقيمتها في حياته لصار ذا ثروة كبيرة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٩ .

من مواقف البرذعي مع أبي زرعة رحمهما الله

لقد اقترنت حياة الزهد والقناعة بالثقة المتبادلة بين التلاميذ والشيوخ ، فكان التخلق بهذا الخلق دافعا لطلاب العلم إلى الثقة بالعلماء ، بينما كان الميل إلى حياة الترف والمظاهر الدنيوية دافعا إلى نزع الثقة بالعلماء .

ومن الأخبار في ذلك ماروواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث محمد بن الهيثم بن علي النسوي قال : لما أن قدم حمدون البرذعي على أبي زرعة لكتابة الحديث دخل عليه فرأى في داره أواني وفُرُشًا كثيرة – قال : وكان ذلك لأخيه – فهمَّ أن يرجع ولايكتب عنه، فلما كان من الليل رأى كأنه على شط بركة ، ورأى ظل شخص في الماء ، فقال : أنت الذي زَهِدْتَ في أبي زرعة؟! أعلمت أن أحمد بن حنبل كان من الأبدال[1] ، فلما أن مات أبدل الله مكانه أبا زرعة[2] .

---

(١) أي من العلماء الذين يخلفون من سبقهم في الإمامة في العلم والدين .

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٣٣ .

فهذا مثل لحساسية أهل العلم من مظاهر الحياة الدنيا ، وهذا دليل على أنهم كانوا يقارنون بين العلم والعمل ، فإذا رأوا العالم يتبسط في أمور الدنيا نفروا منه لأنه لم يعمل بما روى من أحاديث الزهد والقناعة .

ولما كانت تلك الأواني والفرش الكثيرة لأخي الحافظ أبي زرعة وليست له بَرَّأه الله تعالى بتلك الرؤيا الصالحة التي رآها حمدون البرذعي ، حيث رجع للسماع منه فعرف جلية الأمر .

من مواقف نصر بن علي الأزدي رحمه الله

من أخبار زهد الصالحين في الجاه وخشيتهم من الله تعالى مارُوي عن أبي بكر بن أبي داود قال: كان المستعين بالله بعث إلى نصر بن علي[1] يُشْخِصُه للقضاء ، فدعاه عبد الملك أمير البصرة وأمره بذلك ، فقال : أرجعُ واستخير الله تعالى ، فرجع إلى بيته نصف النهار فصلى ركعتين وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ، فنام فأنبهوه فإذا هو ميت[2] .

فهذا العالم قد دُعي إلى القضاء وهو مجال من مجالات العمل الصالح مع العدل وصلاح النية والسلامة من الوقوع في المآثم ، ولكنه كره ذلك ونفر منه خشية التعرض لمجالات المآثم ، وقد بلغ به الخوف من الإلزام بالقضاء إلى حد أنه سأل الله تعالى قبض روحه ، فالحياة الدنيا في عرف هؤلاء العارفين المتقين مجال واسع رحب

---

(١) هو أبو عمرو نصر بن علي الأزدي الجهضمي .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٣٦ .

للأعمال الصالحة ، ولكنها أيضًا مجال للأعمال السيئة، ودرءُ المفاسد عندهم مقدم على جلب المصالح ، فانتهاء الحياة التي قد تُعرِّض صاحبها لفتنة في دينه أولى من عمارتها بأعمال صالحة قد خالطتها أعمال سيئة .

من مواقف محمد بن سعيد الكوفي رحمه الله

من المواقف الجيدة في الورع ماجرى من محمد بن سعيد الكوفي المعروف بعقدة والد أبي العباس أحمد بن عقدة الحافظ المشهور [1] وذلك فيما رواه الخطيب البغدادي بإسناده عن أبي علي النقار قال: سقطت من عقدة دنانير على باب دار أبي ذر الخزاز فجاء بِنَخَّال ليطلبها، قال عقدة : فوجدتها ، ثم فكرت فقلت : ليس في الدنيا غير دنانيرك ؟ ! فقلت للنخال : هي في ذمتك ، ومضيت وتركته [2] .

فهذا مثل في التورع عن الشبهات حيث اشتبه عليه الأمر فخشي أن لاتكون تلك الدنانير هي التي فقدها ، فتركها مع أن الذي يغلب على الظن أنها هي لأنه يعرف الموضع الذي فقدها فيه.

قال أبو علي النقار : وكان – يعني عقدة – يؤدب ابن هشام الخزاز – فلما حذق الصبي وتعلم وجه إليه هشام دنانير صالحة

---

(١) سُمِّيّ عقدة لتعقيده في التصريف كان عالما بالنحو .

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ١٥ .

فردها،فظن هشام أن عقدة استقلها فأضعفها له ، فقال عقدة: مارددتها استقلالاً لها ولكن سألني الصبي أن أعلمه القرآن فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، فلا أستحل أن آخذ منه شيئًا ولو دفع إليَّ الدنيا [1] .

فهذا مثل آخر من ورع هذا العالم الفاضل حيث كان يأخذ أجرًا على تعليم اللغة فلما اختلطت دروسها بدروس القرآن ترك الأجر كله ، وكان العلماء الأتقياء يتورعون عن أخذ الأجرة على تعليم القرآن والسنة .

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٥ .

من مواقف ابن الدجاجي رحمه الله

من ذلك ماذكره السمعاني قال : قرأت بخط هبة الله السَّقَطي أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهة وتقدم وحال واسعة ، وعهدي به وقد أَخْنَى عليه الزمان ، وقصدتُه في جماعة مُثْرِين لنسمع منه وهو مريض ،فدخلنا عليه وهو على بارية [1] وعليه جبة قد حرقت النار فيها، وليس عنده مايساوي درهما ، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شَرَه أهل الحديث .

فلما خرجنا قلت : هل معكم ما نصرفه إلى الشيخ ؟

فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل ، فدعوت بنته وأعطيتها ، ووقفت لأرى تسليمها له، فلما أعطته لطم حُرَّ وجهه ونادى : وافضيحتاه ، أنا آخذ على حديث رسول الله ﷺ عوضا ؟ لا والله ، ونهض حافيا إلي ، وبكى ، فأعدت الذهب إليهم فتصدقوا به [2] .

---

(١) هي فراش يصنع من القصب وهو من الفرش الخشنة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٣ .

فهذا موقف كريم من هذا الشيخ الجليل يدل على درجة عالية من العفة والقناعة ، حيث رَدَّ ذلك المبلغ بأسلوب مؤثر بيَّن فيه شناعة أخذ الأجرة على تعليم حديث رسول الله ﷺ ، مع أن هذا الشيخ كان في حال يُرْثَى لها كما جاء في وصف السمعاني .

فما أعظم هذه النماذج العالية التي يقدِّمها علماء الأمة في العفة والقناعة والزهد والورع وغير ذلك من مكارم الأخلاق !

من مواقف القاضي محمد بن المظفر رحمه الله

من أخبار العلماء في مجال الورع والعفة ماذُكِر عن الإمام أبي بكر محمد بن المظفَّر الحموي أنه لما تولَّى القضاء لم يأخذ على القضاء رزقا، ولاغيَّر مأكله ولاملبسه، وكان يسوِّي بين الناس، فانقلب عليه الكبراء، وكان نَزِهًا ورعا على طريقة السلف، له بيت يؤجره كل شهر بدينار ونصف وكان يقتات منه، فلما ولي القضاء جاء إنسان فدفع فيه أربعة دنانيرَ فأبى، وقال لا أُغيِّر ساكني، وقد ارتبت بك، هلاَّ كانت هذه الزيادة من قبل القضاء ؟! [1].

فهذا مثل من الورع والثبات على الحق وإن غضب من ذلك كبراء الناس في عرف أهل الدنيا، فإن هؤلاء الكبراء لايرضون إلا عن القضاة الذين يحققون لهم شيئًا من مصالحهم الدنيوية، ويغضون الطرف عن الأمور التي تؤثر على دنياهم.

وهذا من الأمور التي جعلت بعض العلماء يفرون من تولِّي

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٦.

القضاء ، لأنهم إن عدلوا تمام العدل وساووا بين الناس غضب منهم الكبراء وناصبوهم العداء ، ولكن إذا كان القاضي قوي الإيمان راسخ اليقين كهذا العالم الجليل أبي بكر محمد الحموي فإن الكبراء يحترمونه في الأخير ويسلِّمون للحكم الشرعي إما عن قناعة وتأثر بموقفه القوي ، وإما استسلامًا لقوته وثباته .

ولقد تَوَّج هذا القاضي الجليل عمله الكبير في العدل بامتناعه من أخذ المال الذي يخصص للقضاة من قِبَل الولاة ، وهذا دليل على عفته وقناعته ، وكذلك عدم قبوله الزيادة في أجرة المسكن الذي يؤجره بعد توليه القضاء يدل على ورعه .

من مواقف أبي عبد الله الحميدي رحمه الله

من أمثلة الورع والخشية ماذكره الحسين بن محمد بن خسرو قال: جاء أبو بكر بن ميمون فدقَّ الباب على الحميدي [1]، وظن أنه أذن له ،فدخل فوجده مكشوف الفخذ ، فبكى الحميدي وقال: والله لقد نظرت إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت [2].

فهذا الإمام الجليل أبو عبد الله الحميدي يبكي من خشية الله تعالى لما رأى أحدُ زواره فخذه مكشوفة ، وهذه الحساسية المرهفة من خشية الوقوع في المآثم دليل على قوة الإيمان بالله تعالى وشدة استحضار حسابه وجزائه .

---

(١) هو العالم الحافظ أبو عبد الله محمد بن فُتوح الحميدي الأزدي الأندلسي .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢ .

من مواقف أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله

من أخبار العلماء في الورع ماذكره الإمام الذهبي عن السمعاني قال : دخل أبو إسحاق[1] يومًا ليتغدَّى فنسي دينارًا ، ثم ذكر فرجع فوجده ، ففكر وقال: لعله وقع من غيري فتركه[2] .

فهذا مثل للاحتياط للدين ، فالغالب أن الدينار هو دينار أبي إسحاق ، ومع ذلك تركه تورعًا خشية أن يكون قد سقط من غيره .

فهذا العالم الجليل أخذ يوازن بين أمرين بعدما وجد الدينار ، أولهما أن ذلك الدينار هو ديناره لأنه قد وجده في المكان الذي فقده فيه، وهذا هو الغالب ، وثانيهما احتمال أن يكون سقط من غيره ، وهو احتمال بعيد ، ومع ذلك تصرف بناء على هذا الاحتمال البعيد من باب اتقاء الشبهات وإن كانت من الاحتمال البعيد .

(١) هو العالم أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزبادي الشيرازي .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٦ .

من مواقف أبي الفتح النابلسي رحمه الله

من أمثلة العفة والقناعة ماذُكِر عن الفقيه أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي ، قال غيث بن علي الأرمَنَازي : سمعت من يحكي أن الملك تَتَشْ بن أَلْب أرسلان زار الفقيه نصرًا يومًا ... فسأله عن أَحَلِّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان ، قال : أحلُّها أموال الجزية ، فقام من عنده وأرسل إليه بمبلغ وقال : هذا من الجزية ففرِّقه على الأصحاب ، فلم يقبله وقال: لاحاجة بنا إليه ، فلما ذهب الرسول لاَمَه الفقيه نصر المصِّيصي ، وقال : قد علمت حاجتنا إليه ، فقال: لاتجزع من فواته فسوف يأتيك من الدنيا مايكفيك فيما بعد ، فكان كما تَفَرَّس فيه (١) .

فهذا موقف يُذكر للعالم الفقيه نصر بن إبراهيم النابلسي حيث رد ذلك المال الذي وصل إليه من الوالي على الرغم من شدة حاجته وحاجة من حوله ، وعلى الرغم من كون ذلك المال من الجزية التي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٩ – ١٤٠ .

كان أفتى الوالي بأنها أحل أمواله .

وهكذا نجد نماذج رائعة مما يقوم به هؤلاء العلماء الأعلام من العمل الدائب في تطهير نفوسهم، وفطامها من كل ماهو محرم أو مشتبه فيه ، أو يجرُّ المسلم إلى حرام أو شبهة .

وهذا دليل على تضاؤل حظ الدنيا في قلوبهم ، وتضخم حظ الآخرة في وجدانهم ، وأن التفكير في أمر الآخرة قد استحوذ على نفوسهم فأصبح سلوكهم منسجما مع هذا الاعتقاد الصحيح المتَّزن.

من مواقف أبي سعد ابن البغدادي رحمه الله

من أمثلة ذلك ماذكره أبو الفتح محمد بن علي النَّطَنْزي قال: كنت ببغداد فاقترض مني أبو سعد ابن البغدادي عشرة دنانير ، فاتفق أني دخلت على السلطان مسعود بن محمد فذكرت له ذلك فبعث معي إليه خمسمائة دينار ، فأبى أن يأخذها [1] .

فهذا مثل في العفة والورع ، فقد يكون هذا العالم ردَّ ذلك المبلغ لكونه يرى أنه قد اختلط الحلال بالحرام في مال ذلك الأمير فيكون التنـزه عنه من باب الورع ، وقد لايكون ذلك بسبب شبهة عرضت له فيه فيكون التنـزه عنه من باب العفة والقناعة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٢٢ .

من مواقف أبي العباس ابن الحطيئة رحمه الله

لقد كان بعض العلماء يشتغلون بنسخ الكتب والعيش من ذلك حتى لايحتاجوا إلى غيرهم ومن ذلك ماذُكِر عن العالم أبي العباس أحمد بن عبد الله اللخمي المعروف بابن الحطيئة أنه كان يعيش من الوِراقة ، وأنه علَّم زوجته وبنته الكتابة فكتبتا مثله ، فكان يأخذ الكتاب ويقسمه بينه وبينهما فينسخ كل منهما طائفة من الكتاب ، فلا يُفرَّق بين الخطوط إلا في شيء نادر ، .. وكان لايقبل من أحد شيئًا مع العلم والعمل والخوف والإخلاص [1] .

وهكذا كان نسخ الكتب مصدرًا مهما لأولئك العلماء الذين يتورعون عن الشبهات ويخشون أن يدخل عليهم في دينهم شيء إذا قبلوا الأموال التي تُوهب لهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٥ .

من مواقف أبي عُبيد ابن سلاَّم رحمه الله

من أخبار القناعة مارواه الخطيب البغدادي من حديث الفُسطاطي قال: كان أبو عُبَيد – يعني القاسم بن سلاَّم – مع ابن طاهر فوجه إليه أبو دُلَف يستهديه أبا عبيد مدة شهرين ، فأنفذ أبا عبيد إليه ، فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم، فلم يقبلها وقال : أنا في جَنبَةِ رجل ما يُحوجني إلى صلة غيره ، ولا آخذ مافيه علي نقص، فلما عاد إلى طاهر وصله بثلاثين ألف دينار ، بدل ماوصله أبو دلف ، فقال له : أيها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرِّك وكفايتك عنها ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحا وخيلا وأتوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوافرا على الأمير ، ففعل [1].

فهذا موقف جليل في العفة والقناعة من أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى ، فهو لم يقبل من أبي دُلف لما أعطاه ، وخشي أن

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦ .

يكون في ذلك نقص في دينه ، وحينما أعطاه عبد الله بن طاهر ذلك المبلغَ الكبير عفَّ عنه وقنع بما هو فيه من إنفاق ابن طاهر عليه وأنفق ذلك المبلغ في سبيل الله تعالى .

وهنا يأتي تساؤل : كيف استطاع أبو عبيد أن يغلب هوى النفس التي تميل غالبا إلى الاستزادة من الدنيا ، خصوصا وأن المعطي قد أعطى برضاه ومن ماله فليس هناك شبهة تحريم في ذلك المال ؟!

فيقال : إن هناك دافعا آخر يدفع النفس إلى العمل غيرَ حب الدنيا ، ألا وهو حب الآخرة، فإذا كان ارتباط الفكر بالدنيا أقوى تكوَّن سلوك الإنسان على الاستجابة لحب الدنيا، وإذا كان ارتباط الفكر بالآخرة أقوى توجهت الأوامر للنفس بالعمل لما يترتب عليه الرفعة في الآخرة .

وهكذا كان أبوعبيد ، فقد كان عقله الحصيف قد قرر تقديم الآخرة فصدر الأمر لنفسه بأن تَعِفَّ عن ذلك المال ، وأن تقنع باليسير الذي فيه الكفاية وأن تُوَجِّه ذلك المبلغ لعمل الآخرة .

من مواقف الإمام محمد الذهلي رحمه الله

من مواقف الورع المروية عن الإمام الحافظ محمد بن يحيى الذهلي ماذكره الخطيب البغدادي من روايته عن أبي العباس الأزهري قال: سمعت خادمة محمد بن يحيى – وهو يغسَّل على السرير – تقول: خدمت أبا عبد الله ثلاثين سنة وكنت أضع له الماء فما رأيت ساقه قط وأنا ملك له [1].

فهذا الخبر يدل على ورع الإمام محمد بن يحيى الذهلي حيث منع نفسه من أمر مباح له مبالغة في الستر والحياء ، والحياء الديني يدل على قوة الإيمان لقول رسول الله ﷺ « والحياء شعبة من الإيمان » [2].

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٤١٩ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٩ ، صحيح مسلم رقم ٥٨ .

من مواقف الربيع بن صبيح رحمه الله

من هذه المواقف مارُوي عن الربيع بن صبيح أنه كان بالأهواز ومعه صاحب له فتعرضَتْ لهما امرأة فبكى الشيخ ، قال له صاحبه مايبكيك ؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا وقد رأت شيوخا قبلنا يتابعونها ، فلذا أبكي [1] .

فهذه غيرة صادقة وإحساس قوي من ذلك الشيخ الذي تذكَّر حال رؤيته ذلك المنظر البشع أنه له سابقة من شيوخ ضعفاء في إيمانهم غَرَّرُوا بمثل تلك الفتاة فتجرأت بسبب ذلك على الرذيلة .

إن قراءة ماوراء الأحداث إلهام يلهمه الله تعالى السابقين إلى الخيرات الصادقين في إيمانهم وأعمالهم ، ومن هذه القراءة وأمثالها تكون المواعظ والعبر .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٩ .

من مواقف أبي علي ابن شاذان رحمه الله

من المواقف المأثورة في الخشية مارُوي عن محمد بن يحيى الكرماني قال : كنت يوما بحضرة أبي علي ابن شاذان فدخل شاب فسلم ، ثم قال : أيكم أبو علي ابن شاذان ؟ فأشرنا إليه ، فقال : أيها الشيخ رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فقال لي : سل عن أبي علي بن شاذان ، فإذا لقيته فأَقْرِهِ مني السلام ، وانصرف الشاب ، فبكى الشيخ وقال: ما أعرف لي عملا استحق به هذا إلا أن يكون صبري على قراءة الحديث وتكرير الصلاة على النبي ﷺ كلَّما ذُكر ثم قال الكرماني : ولم يلبث أبو علي بعد ذلك إلا شهرين أو ثلاثة حتى مات [١] .

وهكذا بكى العالم أبو علي بن شاذان من خشية الله تعالى ، وكان متواضعا حينما قال هذا الكلام وإلا فإن سيرته تشهد بالجليل من الأعمال الصالحة رحمه الله تعالى .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١٧ – ٤١٨.

موقف في القناعة والأمانة

أخرج القاضي محمد بن أبي يعلى من خبر القاضي أبي بكر محمد ابن عبد الباقي بن محمد البزاز الأنصاري قال : كنت مجاورا بمكة – حرسها الله تعالى - فأصابني يومًا من الأيام جوعٌ شديد لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع ، فوجدت كيسًا من إبريسم مشدودًا بشرَّابة من إبريسم أيضًا ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فحللته فوجدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله ، فخرجت فإذا الشيخ ينادي عليه ، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول: هذا لمن يردُّ علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ ، فقلت : أنا محتاج وأنا جائع . فآخذ هذا الذهب فأنتفع به ، وأردُّ الكيس ، فقلت له : تعال إليَّ ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وَعَدَده ، والخيط الذي هو مَشدُود به ، فأخرجته ودفعته إليه . فسلم إلي الخمسمائة دينار ، فما أخذتها ، وقلت : يجب عليّ أن أعيده إليك ولا آخذ له جزاء ، فقال لي : لابد أن تأخذ . وألح علي كثيرًا ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى.

وأما ماكان مني : فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر ، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكَتْ أموالهم ، وسلمتُ أنا على قطعة من المركب ، فبقيت مُدّةً في البحر لا أدري أين أذهب ، فوصَلتُ إلى جزيرة فيها قوم ، فقعَدتُ في بعض المساجد ، فسمعوني أقرأ ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال : علمني القرآن . فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

قال : ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف ، فأخذتها أقرأ فيها فقالوا لي : تحسن تكتب ؟ فقلت :نعم ،فقالوا:علمنا الخط،فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب، فكنتُ أعلمهم، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير فقالوا لي بعد ذلك:عندنا صبيَّةٌ يتيمة ، ولها شيء من الدّنيا نريد أن تتزوج بها،فامتنعتُ،فقالوا : لابد ، وألزموني ، فأجبتهم إلى ذلك .

فلما زفوها إليَّ مددتُ عيني أنظر إليها ، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه . فقالوا : ياشيخ ، كسرتَ قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ، ولم تنظر

إليها ، فقصصتُ عليهم قصة العقد فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلتُ : مابكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية،وكان يقول : ماوجدتُ في الدنيا مسلمًا إلا هذا الذي ردَّ علي هذا العقد، وكان يدعو ويقول:اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي،والآن قد حصلت، فبقيتُ معها مدة ورزقتُ منها بولدين .

ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي ، ثم مات الولدان فحصل العقد لي فبعته بمائة ألف دينار ، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال . هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل الحافظ في معجمه .

وساقها ابن النجار في تاريخه،وقال:هي حكاية عجيبة،وأظن القاضي حكاها عن غيره"[1] .

---

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ١٩٨ ، وقوله " حكاها عن غيره " يعني ليس هو صاحب القصة وإنما حكاها عن غيره .

فهذا الخبر العجيب فيه بيان تخلق صاحبه بخُلق العفة والورع ، فقد كان بأمس الحاجة إلى مبلغ من المال يشتري به أشياءه الضرورية ، ومع ذلك رفض ذلك المبلغ الكبير الذي دفعه إليه صاحب العقد مع إلحاح ذلك الرجل عليه .

وفي الخبر مثل من رزق الله تعالى الذي يسوقه لأوليائه الصالحين مكافأة لهم على ورعهم وعفتهم مع ما أعده لهم من نعيم أعظم بكثير في الآخرة .

من مواقف الوزير ابن هبيرة رحمه الله

قال أبو حامد أحمد بن محمد بن عيسى الحنبلي : حدثني الوزير عون الدين [1] قال:كان بيني وبين بعض مشايخ القرى معاملة مضيت من أجلها من الدُّور إلى قريته فلم أجده ، فقعدت لانتظارهم حتى هجم الليل ، فصعدت إلى سطحه للنوم فسمعت قومًا يسفَهون بالهُجر من الكلام،فسألت عنهم فأُخبرت أنهم يعصرون بالنهار الخمر ويسفهون في الليل ، فقلت: والله لابِتُّ بها فقيل : ولم ؟ فقلت: أخاف أن ينـزل بهم عذاب وسخط فأكونَ معهم ، فإن لم يكن خسفا حقيقيا كان خسفا معنويا ، ممايدخل على القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام ، ومضيت ذلك الوقت إلى الدُّور [2] .

فهذا مثال من خشية الله تعالى يقدمه الوزير عون الدين ابن هبيرة ، ولاشك أن خشية الله جل وعلا دليل على تعظيمه وحضور

---

(١) هو الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني .

(٢) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦١ .

القلب معه ، وأن تذكُّر سخط الله تعالى ومايـنـزله من العذاب على عُصاته دليل على سعة علم العبد وكمال عقله حيث يأخذ حذره من سخط ربه جل وعلا ونقمته .

وليس من شأن المسلم أن يغتر بالسلامة ومايحصل من الله تعالى من إمهال المجرمين، بل المؤمن حَذِرٌ يقظ يخشى من نـزول نقمة الله تعالى في أي وقت .

ولقد نبَّه ابن هبيرة إلى أن المؤمن ليس من شأنه أن يلاحظ نزول سخط الله تعالى فقط، بل عليه أن يلاحظ ماتحدثه مجاورة المجرمين من قساوة القلوب والاشتغال بهم عن ذكر الله تعالى وعبادته .

من مواقف أبي عبد الله السَّعدي الصالحي رحمه الله

من ذلك ما ذُكِر عن المحدث القدوة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم السعدي الصالحي ، فقد حُكِي عنه أنه كان يحضر مكانًا في جبل الصالحية لبعض شأنه فوجد جرَّة مملوءة دنانير ، وكانت زوجته معه تعينه على الحفر ، فاسترجع وطمَّ المكان كما كان أوَّلاً ، وقال لزوجته : هذه فتنة ، ولعل لها مستحقِّين لانعرفهم ، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحدًا ولا تتعرض إليه ، وكانت صالحة مثله ، فتركا ذلك تورُّعًا مع فقرهما وحاجتهما .

قال اليونيني الذي روى هذه الحكاية : وهذا غاية الورع والزهد رحمهما الله تعالى [1] .

وهكذا ترك هذا العالم الجليل وزوجته ذلك المال مع حاجتهما الشديدة إليه لتذكُّره احتمال أن يكون هناك مستحقون لذلك الكنز ، وهذا دليل على اتصافهما بالزهد في الدنيا والتورع عن الشبهات ، فما

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٣٢١ ، توفي عام ٦٨٨هـ .

أعظم هذه النفوس التي ترتفع عن شهواتها مع شدة الحاجة من أجل بلوغ الهدف الأعلى للمؤمن في هذه الحياة ، وهو أن يحصل على رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الآخرة !!

من مواقف الوزير نظام الملك رحمه الله [1]

اشتهر هذا الوزير بالعدل والإحسان وإنشاء المشاريع الخيرية والمدارس العلمية ، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو شامة :

وبلغ من الدنيا مبلغًا عظيمًا لم ينله غيره . وكان عالمًا فقيهًا ديِّنًا خيِّرًا متواضعًا عادلاً ، يحبُّ أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان أقربَ الناس منه وأحبهم إليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة .

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها ، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد [من شيء] منها، حتى جزيرة ابن عمر – التي هي في زاوية من الأرض لايُؤْبه لها – بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين ، وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة

---

(١) هو نظام الملك أبو علي الحسن بن علي الطوسي ، كان وزيرًا للسلطان ألب أرسلان السلجوقي ولولده السلطان ملكشاه لمدة أربع وثلاثين سنة وقد توفي مقتولاً على يد أحد الباطنية عام خمسة وثمانين وأربعمائة .

مذكورة في التواريخ،لم يسبقه من كان قبله،ولا أدركه من كان بعده .

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ ، ولا توضأ إلا صلَّى . وكان يقرأ القرآن حفظًا ، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لايتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة ، حتى إنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان ، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه ، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة[1] .

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ٩٨ .

من مواقف السلطان نور الدين زنكي رحمه الله

ذكر المؤرخ أبو شامة نقلاً عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال عن السلطان نور الدين:وحُكي لي أنه حُمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة،فلم يُحضرها عنده ، فوُصفت له فلم يلتفت إليها ، وبينا هم معه في حديثها وإذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها ، فقيل له : إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطي غيرها كان أنفع له ، فقال:أعطوها له فإني أرجو أن أُعوَّض عنها في الآخرة ، فسُلِّمتْ إليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة دينار [1] .

فهذا مثال بليغ على زهد السلطان نور الدين محمود زنكي وبُعده عن المظاهر الدنيوية التي انخدع بها كثير من الولاة .

ومن أمثلة خشيته لله تعالى وتذكره للآخرة ما ذكره المؤرخ أبو شامة قال: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصًا بخدمة نور الدين ،قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٦ .

انبساط ، قال : كنت معه يوما في الميدان بالرها ، والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمَنا الظل ، فلما عدنا صار الظل وراءنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها .

قال أبو شامة : قلت : رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا ، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى :

مَثَل الرزق الـذي تطلبه　　　مَثَل الظل الذي يمشي معك

أنـت لا تـــدركه متَّبعًا　　　فـــــإذا ولـيت عنه تبـعك[1]

ففي هذا الخبر دليل على خشية نور الدين ويقظة تفكيره ورسوخ يقينه وحضور قلبه مع أحداث الآخرة ، فحينما رأى ما يشبه ذلك من أحداث الدنيا تذكر بها أحداث الآخرة .

ومن مواقف السلطان نور الدين محمود في الورع ماذكره المؤرخ

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٧ .

ابن شامة نقلاً عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال : حكى لي من أثق به أنه دخل يومًا إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين ، فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال: إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال على أصحابه ؟! فذكروا له قول كمال الدين فرده إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا،وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعادُ قولاً واحدًا [1] .

فهذا الخبر فيه مثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأموال واتقاء الشبهات ، فعلى

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٠ – ٤١ .

الرغم من أن ذلك المال قد أتى من طريق القاضي كمال الدين الشهرزوري – وهو المعروف بعلمه وتقواه – فإن نور الدين قد رفض قبوله ، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة .

توجيهات ومواقف
في
العمل الصالح

من مواقف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

من الأعمال الصالحة المترتبة على قوة الإيمان والتي تدل على كمال الطاعة وقوة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ ماذكره الإمام الذهبي من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ وهو يخطب فسمعه وهو يقول : «اجلسوا» ، فجلس مكانه خارج المسجد حتى فرغ من خطبته ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : «زادك الله حرصًا على طواعية الله ورسوله»[1] .

إن هذا العمل الذي قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يُعدُّ مثلاً من أمثلة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ في أمور الدين حتى فيما لاتُعلم حكمته،فقد نفذ ابن رواحة أمر النبي ﷺ وهو لايدري لِمَ أُمِر الناس بالجلوس،وإنما يكون ذلك من قوة الإيمان الذي يبرز في ذهن المؤمن فيحصر مشاعره في لزوم الطاعة والاستسلام ، ولايكون في ذهنه مجال للتفكير في ذلك،هل هو على ظاهره أم يراد به شيء آخر.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٢ .

ومع أن النبي ﷺ كان قد وجه الأمر للواقفين في المسجد ليجلسوا، ولم يرد من القادمين أن يجلسوا خارج المسجد ، فإنه دعا لعبد الله بن رواحة بأن يوفقه الله تعالى إلى زيادة الحرص على طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، مما يدل على أن هذا الأمر أهم من كونه وافق مراد النبي ﷺ من الأمر أو لم يوافقه لأن قضية الطاعة قضية إيمانية ، فهي أهم من الأمر نفسه الذي ترتب عليه هذا الموقف ، ولذلك ترك النبي ﷺ تصحيح ذلك الأمر ، واهتم بهذا الموقف الإيماني ، فدعا لابن رواحة بمزيد من التوفيق في ذلك .

ويشبه هذا الموقف ما جرى من الصحابة الذين أخروا صلاة العصر حتى خرج وقتها لما أمرهم النبي ﷺ بالخروج إلى بني قريظة فقال :« لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يُرد منا ذلك ، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم» أخرجه الإمام البخاري (١) .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤١١٩ .

فهؤلاء الذين أخروا صلاة العصر حتى فات وقتها قد أخذوا الأمر على ظاهره ، وكان دافعهم في ذلك الاستسلام والطاعة لأمر رسول الله ﷺ ، ولذلك لم ينكر عليهم رسول الله ﷺ هذا التأخير ، لنبل مقصدهم الذي دفع إليه قوة إيمانهم .

ألا ما أحوج الأمة الإسلامية إلى لزوم طاعة الله تعالى في جميع أوامر الدين سواء أفهموا الحكمة منها أم جهلوها ، وأن تكون الرغبة الشديدة في تنفيذ الأوامر الشرعية بارزة وسابقة محاولة فهم الحكمة من الأوامر ، فإن تبينت الحكمة فذلك مما يزيد في اليقين والطمأنينة ، لكن التنفيذ سابق على ذلك بدافع من الإيمان القوي الذي يسير بصاحبه نحو بلوغ الهدف الأعلى ، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى واجتناب سخطه .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

أخرج الإمام الطبراني من خبر عامر بن سعد قال : بينما سعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يمشي إذ مرَّ برجل وهو يشتم عليًّا وطلحة والزبير ، فقال له سعد : إنك تشتم أقوامًا قد سبق لهم من الله ماسبق ، والله لتكفَّنَّ عن شتمهم أو لأدعونَّ الله عز وجل عليك ، قال : يخوفني كأنه نبي ! فقال سعد : اللهم إن كان يشتم أقوامًا قد سبق لهم منك ماسبق فاجعله اليوم نكالاً ، فجاءته بُختيَّة [١] فأفرج الناس له فتخبَّطته ، فرأيت الناس يتبعون سعدًا يقولون : استجاب الله لك يا أبا إسحاق .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح [٢] .

فهذا موقف محمود من سعد رضي الله عنه في الدفاع عن إخوانه

---

(١) أي ناقة.

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٥٤ .

الصحابة رضي الله عنهم ، والدفاع عن الغائبين دليل على قوة الإيمان خصوصًا إذا كانوا قد غادروا هذه الحياة ، لأن الذي يدافع عن إخوة له قد توفاهم الله عز وجل لا ينتظر منهم أن يقابلوه فيلوموه على التقصير في حقهم ، ولا أن يشكروه على الدفاع عنهم ، فالباعث على الدفاع عنهم – والحال هذه – هو الخوف من الله تعالى ورجاء ما عنده، وفي هذا تهوين من شأن الدنيا وتعظيم من شأن الآخرة ، لأن كل عامل ينال جزاءه على نيته من إرادة الدنيا أو الآخرة .

من مواقف أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي العالية ، عن أُبَيّ بن كعب قال : عليكم بالسبيل والسنّة فإنه ليس من عبدٍ على سبيلٍ وسنّة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسَّه النار ، وليس من عبد على سبيلٍ وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقُها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتَّ عنها ورقها ، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتَّ عن هذه الشجرة ورقُها ، وإن اقتصادًا في سبيل وسنَّة خيرٌ من اجتهاد في خلافٍ من سبيل وسنة[1] .

فهذا تنبيه مهم من عالم كبير وصفه أمير المؤمنين عمر بأن سيد المسلمين ، يعني في العلم رضي الله عنهما ، فقد أوصى أبي بن كعب بتحقيق الركن الثاني من أركان العمل الصالح ، وهو اتباع منهج رسول الله ﷺ وسنته ، فإذا اجتمع مع ذلك الركن الأول وهو

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٦ .

الإخلاص لله تعالى كان العمل صالحًا .

ولعل أبي بن كعب لاحظ في بعض التابعين ميلاً إلى التعبد على غير سنة رسول الله ﷺ فبين لهم أنه وإن ظهرت عليهم علامات الإخلاص من البكاء والقشعريرة من خشية الله تعالى فإن أثر ذلك في محو الذنوب والوقاية من النار مترتب على لزوم السنة .

ثم بيَّن أن العمل القليل مع لزوم السنة خير من العمل الكثير مع مخالفتها ، لأن ذلك العمل القليل قد توافرت فيه عناصر القبول ، بينما تخلف من ذلك العمل الكثير عنصر مهم وهو اتباع السنة النبوية.

من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه

من ذلك ما ذكر ابن الجوزي من خبر رجاء بن حيوة عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : أنشأ رسول الله ﷺ غزوًا فأتيته فقلت : يارسول الله ادع الله لي بالشهادة ، فقال : «اللهم سلِّمهم وغنمهم» ، قال : فغزونا وسلمنا وغنمنا .

ثم أتيته بعد ذلك فقلت : يارسول الله مرني بعمل آخذه عنك ينفعني الله عز وجل به . قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له .

قال: فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلقَون إلا صيامًا فإذا رأوا نارًا أو دخانًا بالنهار في منزلهم عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف .

قال : ثم أتيته بعد ذلك فقلت : يارسول الله إنك قد أمرتني بأمرٍ وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعني به ، فمُرني بأمر آخر ينفعني الله عز وجل به . قال : «اعلم أنك لا تسجد لله عز وجل سجدةً إلا رفع الله عز وجل لك بها درجةً أو حط بها عنك خطيئة » [1] .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٣-٧٣٤ .

فهذه سلسلة من الأعمال الصالحة يقوم بها هذا الصحابي الجليل أبو أمامة صُدَيّ بن عجلان الباهلي رضي الله عنه ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فهو حينما أدرك أن أقرب طريق للوصول إلى هذا الهدف هو الشهادة طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بها ، لكنه دعا له ولرفقته بالسلامة ، فلما فاتته الشهادة طلب من النبي ﷺ أن يدله على عمل يحقق له ذلك الهدف فأرشده إلى الصوم ، ثم طلب منه مرة أخرى فأرشده إلى الصلاة ، ولقد حقق ذلك كله رضي الله عنه .

من مواقف ربيعة بن كعب رضي الله عنه

أخرج الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ وأقوم في حوائجه نهاري أجمعْ ، حتى يصلي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة ، فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول : لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة ، فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ : «سبحان الله، سبحان الله ، سبحان الله وبحمده» ، حتى أَمَلَّ فأرجع ، أوتغلبني عيني فأرقد ، قال : فقال لي يوما – لِماَ يرى من خفتي له وخدمتي إياه – : «سلني ياربيعة أُعطِك ، قال فقلت : أَنظرُ في أمري يارسول الله ، ثم أُعلمُك ذلك ، قال : ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة زائلة ، وأن لي فيها رزقًا سيكفيني ويأتيني ، قال فقلت : أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنـزل الذي هو به، قال : فجئته فقال : «ما فعلت ياربيعة ؟» ، قال فقلت : نعم يارسول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار قال فقال : «من أمرك بهذا ياربيعة ؟» قال فقلت : لا والله الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد ، ولكنك لما قلت : سلني أعطك وكنت من الله تعالى بالمنـزل

الذي أنت به نظرت في أمري وعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة ، وأن لي فيها رزقًا سيأتيني ، فقلت : أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي ، قال : فصَمَت رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال لي : «إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود» (١) .

وقبل أن أذكر موقف ربيعة فإنه لابد من الإشارة إلى ماذكره من استغراق النبي ﷺ بذكر الله تعالى ، حيث يردد التسبيح كثيرًا ولايمل من ذلك ، وهذا يعني حضور القلب مع الله تعالى حضورًا كاملاً .

إن الذي يكون حاضر القلب مع الله جل وعلا يعيش في جو روحاني رفيع ، وينسى الدنيا وما فيها من خير أوشر ، فلذلك لا يسأم من تكرار صيغة واحدة من الدعاء مائة مرة أو أكثر ، لأن انشغال قلبه بتصور عظمة من يناجي جل جلاله يجعله يستمر في الذكر ، بدون انقطاع ، وهو يشعر بمتعة روحية عالية ، يعجز البيان عن تصويرها ،

---

(١) مسند أحمد ٤/٥٩ ، وأخرجه الإمام مسلم مختصرًا ، رقم ٤٨٩ ، الصلاة (ص٣٥٣) .

ومن ذلك جاء توجيه النبي ﷺ بتكرار الذكر كالأذكار المشروعة عقب الصلوات المفروضة وكقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة .

أما موقف ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه فإنه مثل من اليقين والوعي الديني ، حيث عرف حقيقة الدنيا في ضآلتها وانقطاعها ، فقدَّرها بما يناسبها ، وعرف قدر الآخرة العظيم فادَّخر لها هذه المسألة العظيمة ، ولو سأل الدنيا لأعطيها ، ثم زالت وزال .

وهكذا رأينا هذا الشاب لم يفكر بمستقبله الدنيوي ،مع أنه بحاجة إلى بناء البيت والزواج وتكوين الأسرة ونحو ذلك من مطالب الدنيا ولكنه – وهو في سِنٍّ مبكرة – فكر بمستقبله الأخروي ، وهذا من توفيق الله إياه ، كما أنه يعتبر مثالاً على أن الذي يهيمن على تفكير أبناء ذلك المجتمع الصالح هو التخطيط لما بعد الموت ، فإن ما قدره الله تعالى من الرزق كائن لا محالة ، والسعيد هو الذي يتخفف من أعباء الدنيا ليتفرغ كثيرًا لعمل الآخرة .

من مواقف عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

من ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة النميري من خبر مجاهد بن جبر قال : مرَّت بابن عمر رضي الله عنهما رفقة فقال: مَن القوم؟فقال حادي ابن عمر:قريش،فقال ابن عمر:قريش قريش!! نحن المهاجرون [1] .

فهذه ملاحظة جليلة من عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أراد أن يلفت النظر فيها إلى أن مِنْ واجب المسلم أن يعتزَّ بإسلامه ، فينتمي إلى الاسم المنبثق من الإسلام ، فالمسلمون من قريش الذين هاجروا إلى المدينة أصبح اسمهم الإسلامي المهاجرين ، فهم لهذا يعتزون بأنهم مهاجرون ولا يُلقون بالاً لكونهم من قريش مع أن قريشًا أعلى قبائل العرب نسبًا .

وبهذه النظرة الإسلامية التي ضخمت من شأن الانتماء الإسلامي،وأضعفت من شأن الانتماء القبلي كان اتحاد قلوب الصحابة

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٤٨٨ .

رضي الله عنهم وقوتهم على أعدائهم ، ومن يوم أن وُجد الانتماء القبلي والوطني بعد ذلك ضعف المسلمون وتمكن منهم أعداؤهم ، لأن ذلك الانتماء كان له أثر في تفريق المسلمين .

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله

من الأمثلة الجيدة على خُلُق السماحة ماروي عن الإمام القاسم ابن محمد أحد فقهاء المدينة في عهد التابعين ، يقول الإمام مالك بن أنس: وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء فيقول له القاسم: هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك ، فإن كان حقًّا فهو لك فخذه ولا تحمدني عليه ، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك [1] .

وبهذا يضرب هذا العالم الرباني مثلاً عاليا في السماحة والبعد عن الخلاف والمراء ، وهذا الخلق الكريم ينطبق عليه الثواب الجزيل الذي ذكره رسول الله ﷺ بقوله : « أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه [2] .

وهذا الخلق الكريم مبني على الزهد في الدنيا والتجرد من حظ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٤٨٠٠ ، الأدب (٥/ ١٥٠) ، سنن الترمذي ،رقم ١٩٩٣ ،البر (٤/ ٣٥٨)وقال : هذا حديث حسن ، سنن ابن ماجه رقم ٥١ (١/ ١٨) . وربض الجنة أدناها .

النفس ، ومن نتائجه الطيبة قطع أسباب النزاع والشقاق ، وتقوية المودة والأخوة بين المؤمنين .

من مواقف عبدالله بن عون رحمه الله

من المواقف العالية في العمل الصالح وتطبيق العلم الديني ماذكره بكَّار بن محمد السِّيريني عن الإمام الرباني عبد الله بن عون قال: وكان إذا جاءه إخوانه كأنما على رؤوسهم الطير ، لهم خشوع وخضوع ،ومارأيته مازح أحدًا،ولاينشد شعرًا،كان مشغولاً بنفسه، وماسمعته ذاكرًا بلال بن أبي بردة بشيء قط ، ولقد بلغني أن قومًا قالوا له :يا أبا عون بلال فعل كذا ، فقال: إن الرجل يكون مظلومًا فلا يزال يقول حتى يكون ظالماً ، ما أظن أحدًا منكم أشد على بلال مني .

قال : وكان بلال ضربه بالسياط لكونه تزوج امرأة عربية [1] .

فهذا مثل على عفة اللسان والتورع عن قيل وقال : فقد نهى هذا الإمام الجليل عبد الله بن عون أصحابه عن الكلام في الأمير بلال بن أبي بردة مع أنه كان قد أساء إليه وضربه بالسياط .

وهذا نموذج من العمل الصالح الذي كان ثمرة العلم النافع ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٠ .

ومن أبرز ما أفاده ابن عون أن المظلوم إذا تكلم في عرض ظالمه فإنه يشاركه في الظلم مالم يكن ذلك على سبيل التبليغ عن منكر لمن يستطيع إنكاره ، إضافة إلى أن المظلوم يُهدِرُ ثوابه بالتظلم وعدم الصبر على الأذى ويكتسب إثمًا باغتياب ظالمه .

هذا وإن ماقام به الأمير ابن أبي بردة من عقوبة الإمام ابن عون على زواجه بامرأة عربية يُعدُّ من التعصب الممقوت المبني على الجهل بأحكام الدين ، وكان الواجب عليه أن يتأدب مع العلماء وأن يأخذ الفتوى في هذا الأمر من ابن عون وأمثاله .

ولقد كان هذا العالم الرباني قد جمع بين أنواع من العمل الصالح تدل على شمول فهمه للإسلام، فلقد كان من أبرز المجاهدين في سبيل الله تعالى،إلى جانب بروزه في علوم الدين وتفوقه في العبادات الخاصة.

من مواقف سفيان الثوري رحمه الله

إن أخبار الإحسان والرحمة لم تقتصر على الإنسان وإنما شملت حتى الحيوان ، ومن الأخبار الجيدة التي جاءت في ذلك ماروي عن الإمام الرباني سفيان الثوري ورحمته بالطائر ، فقد أخرج أبو نعيم من حديث عارم قال : أتيت أبا منصور أعوده فقال لي : بات سفيان في هذا البيت ، وكان هنا بلبل لابني ، فقال : مابال هذا محبوسا ؟ لو خُلِّي عنه ، قلت : هُوَ لابْني وهو يهبه لك ، قال : لا ولكن أعطيه دينارًا ، فأخذه فخلَّى عنه ، فكان يذهب ويرعى فيجيء بالعَشِيّ فيكون في ناحية البيت ، فلما مات سفيان تبع جنازته فكان يضطرب على قبره ، ثم اختلف بعد ذلك ليالي إلى قبره فكان ربما بات عليه ، وربما رجع إلى البيت ، ثم وجدوه ميتا عند قبره ، فدفن عنده .

قال الذهبي : أبو منصور هو بسر بن منصور السَّليمي كان سفيان مختفيا عنده بالبصرة بعد أن خرج من دار عبد الرحمن بن مهدي ، قاله الطبراني[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٦ .

وهكذا أدركت رحمة هذا العالم الرباني ذلك الطير المحبوس ، وساءه تقييد حريته ، وهذا ثمرة من ثمرات العلم النافع ، وهذا يعني أن شعوره بمشاعر إخوانه المسلمين أعظم من ذلك بكثير .

ولقد كان هذا الإمام مُربِّيا ناجحا ، خبيرًا بأحاسيس النفوس وآلامها وآمالها ، فحينما عرض عليه والد الطفل ذلك الطير هدية ليطلقه أبَى أن يقبل ذلك ، فهو ليس ممن تدركه الرحمة بالحيوان وينسى أحاسيس الإنسان ، فالطفل متعلق بطيره ، ولو ذهب منه بدون مقابل لأصابه الحزن ولتأثرت نفسه بذلك ، ولكن حينما تتم مواساته ويعوض عنه بما يحب فإنه لن يحصل له شيء من التأثر ، وسيظل محبا لذلك الشيخ الذي جبر قلبه وقدَّر مشاعره .

وإن ماجرى من ذلك الطائر من تعلقه بالشيخ حال حياته وبعد وفاته حدث عجيب،وإنه يعطي مثلا حيا على مدى الألفة والانجذاب بين الإنسان والحيوان .

من مواقف بعض المجاهدين رحمهم الله

أخرج أبو نعيم بإسناده عن حاتم الأصم قال : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافُّو الترك في يوم لا أرى فيه إلا رؤوسا تندر ، وسيوفا تقطع ، ورماحا تقصف ، فقال لي شقيق ونحن بين الصفين : كيف ترى نفسك ياحاتم في هذا اليوم ؟ تراه مثله في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك؟ قلت: لا والله ، قال : ولكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفت فيها امرأتي، قال: ثم نام بين الصفين ودَرَقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

قال حاتم : ورأيت رجلا من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي ، فقلت : مالك ؟ قال: قُتل أخي، قلت: حظ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه ، قال : فقال لي : اسكت ، ما أبكي أسفًا عليه ولا على قتله ، ولكني أبكي أسفًا أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف به.

قال حاتم : فأخذني في ذلك اليوم تركي فأضجعني للذبح فلم يكن قلبي به مشغولا ، كان قلبي بالله مشغولا ، أنظر ماذا يأذن الله له

فيّ ، فبينا هو يطلب السكين من خفِّه إذا جاء سهم عائِر فذبحه فألقاه عني[1] .

ففي هذا الخبر يصور شقيق رحمه الله شعوره نحو الجهاد في سبيل الله تعالى وقد التقى الصفَّان، وبرزت الأهوال ، فيصف هول ذلك اليوم بأنه يشبه في جلب السعادة للنفس ونشوة الفرح دخوله على زوجته لليلة عرسه .

إن هذه الصورة المشرقة من المشاعر قد لايتصورها بعض الناس، وقد لايصدقونها عند سماعها لِبُعْدِ مابين الصورتين : صورة الظفر بسبب مشروع من أسباب الوصول إلى قمة اللذة الجسمانية ، وصورة التوغل في سبب من أسباب الهلاك وانقطاع كل اللذات الجسمانية ، ولكن هذه الصورة وإن كان فيها التعرض للأذى الجسماني وقطع كل اللذات الجسمانية فإن تلك اللحظات التي يمارس فيها

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٦٤ ، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٤ .
وسهم عائر أي لايعرف راميه .

المجاهد الإثخان في العدو والتعرض لأنواع الأذى والهلاك تعدُّ قمة في متعة الروح ، فالوصول إلى كسر شوكة الأعداء والنكاية فيهم متعة روحية عالية لا يماثلها إلا لذة مناجاة الله تعالى وخاصة في جوف الليل .

والشوق إلى الشهادة في سبيل الله تعالى متعة عالية تجعل الروح تحلِّق بأحلامها بين جنبات الجنة وفي أحضان حورها العين .

فلا غرابة إذًا أن يتصور هذا العالم الرباني المجاهد التماثل بين قمة الوصول إلى لذة الجسم وقمة الوصول إلى متعة الروح .

إن هذا التصوير المقارن مجردُ تمثيل للتقريب بين صورة مُحَسَّة معروفة لدى كل الناس وصورة متخيلة في الذهن لدى الكثيرين ، ومُحَسَّة معروفة لدى القلائل ، وإلا فإن بُعْدَ مابين الصورتين كبير ، لأن متعة الروح لايماثلها شيء من متعة الجسم .

ولقد صور خالد بن الوليد رضي الله عنه هذا المعنى بتعبير أبلغ حيث يقول : مامن ليلة يُهدى إلي فيها عروس أنا لها محب أحب إلي

من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد وأنا في سرية أصبِّحُ فيها العدو [1] .

وفي المقطع الثاني من الخبر نجد حاتما الأصم يصف حال رجل يبكي لأنه لايدري كيف كان صبر أخيه عند وقوع السيف به ، فهو لايبكي أسفًا على فقد أخيه ولكنه يبكي إشفاقًا منه على أخيه أن لايكون قد حاز درجة عالية من الصبر ساعة مواجهته سلاح العدو ، وهذا مثل رفيع من صدق التصور وعلو الهمة حيث يكون الفكر منحصرا في كيفية بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العُلَى في الجنة .

وفي المقطع الثالث من الخبر يصور حاتم الأصم شعوره حال مواجهته الذبح على يد ذلك الرجل فقد كان قلبه حاضرا مع الله تعالى، حيث كان فكره مترددًا بين أن يكتب الله تعالى له الشهادة أو يُمِدَّه بنصر من عنده فينقذه من بين يدي ذلك العدو ، وقد أنقذه الله جل وعلا بذلك السهم الذي لايدري من أين أتَى ، وإن ارتباط الفكر في تلك الساعة بالله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين .

---

(١) سيرة أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥ .

من مواقف أبي عبد الرحمن عبدان الأزدي رحمه الله

رُوي عن الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن عبد الله بن عثمان الأزدي بالولاء المروزي المعروف بـ« عبدان» أنه قال في بذل المعروف والإحسان : ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي ، فإن تم وإلا قمت له بمالي ، فإن تم وإلا استعنت بالإخوان فإن تم وإلا استعنت بالسلطان[1] .

فلقد عبر عبدان بهذا القول عن وجوه الإحسان الممكنة ، فالإحسان يكون ببذل النفس ويكون ببذل المال ، وقد ينشط بعض الناس للإحسان ببذل النفس ولاينشط لبذل المال ، وقد يكون الأمر بضد ذلك فينشط لبذل المال ولاينشط لبذل النفس ٠

والإحسان يكون بعد ذلك بالاستعانة بالإخوان ، ثم يكون بعد ذلك بالاستعانة بالسلطان ٠

وقد يقف بعض الناس عند الإحسان ببذل المعروف بالنفس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٠ .

والمال، ثم يرى أنه قد أعذر وفعل ما يُطلب منه ، لكن الذين يملكون أنفسًا وثابة نحو المعالي لايقفون عند هذا الحد ، فإذا عجزوا عن فعل المعروف بأنفسهم وأموالهم استعانوا على ذلك بإخوانهم ، ولايرون في ذلك غضاضة ، لأن الهدف الذي يكون ماثلا أمام أعينهم هو النجاح في القضية التي دخلوا فيها ، وليس مجرد الحصول على العذر والرضى ممن تصدوا لحل قضيته ، وذلك من منطلق أن المعروف عمل صالح ، وإذا كان لايتم إلا بالاستعانة بالإخوان فليسهموا في ذلك ٠

وقد تُقضى الحاجة بذلك ، ولكنها قد يَتعسر قضاؤها إلا عن طريق السلطان ، وهنا يأتي بذل الجاه عند السلطان لقضاء حاجة المحتاجين ، وهو باب من أبواب العمل الصالح يلج فيه من يُقدِّرون هذا العمل كما كان يصنع الإمام عبدان رحمه الله تعالى ٠

وكما كان هذا الإمام مشهورًا ببذل جاهه فقد كان مشهورًا ببذل ماله كما قال أحمد بن عبدة الآملي : تصدق عبدان في حياته بألف ألف درهم [1] ٠

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧١ .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله

من ذلك ما أخرجه الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر أحمد ابن خالد الفقيمي ، أن عدة من بني هاشم حدثوه : أن المنصور كان شُغلُه في صدر نهاره بالأمر والنهي في الولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل ،والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية ، لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سُمَّاره من ذلك فيما أَرَبَ ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمَّاره ، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه، وصفَّ في محرابه حتى طلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه [1] .

فهذا مثل من البراعة في تنظيم الوقت، والمقدرة الفائقة على

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٠/ ١٢٨ .

القيام بمجموعة من الأعمال الجليلة في يوم واحد ، فمع أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور يحكم دولة تمتد من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا فإنه قد وجد وقتا لعبادة الله تعالى بقيام الليل، حيث خصص ثلث الليل الأخير للصلاة ، ومن المعلوم أن مقدرته العالية على القيام بمسئولية أعظم دولة في العالم وتغلُّبه على جميع المناوئين له كان من أثر صلاته بالليل ، حيث إن الصلاة تزوِّد المسلم بطاقة عالية في العمل ومقدرة كبيرة على التحمل والصبر وتحدي المشكلات والخروج من المآزق، وإننا لنفهم هذا من قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٥] ،فبعد أن أمره الله جل وعلا بصلاة الليل أخبره بعِظَم المسئولية التي بعثه تعالى بها ليكون له من مناجاته لله تعالى وتصور عظمته زاد قوي يجابه به المخالفين ويصبر على أذاهم .

من مواقف أبي عثمان الحيري رحمه الله

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحِيري من خبر عبد الكريم بن هوازن سمعت أبا عثمان يقول : منذ أربعين سنة ماأقامني الله تعالى في حالة فكرهتها ولانقلني إلى غيرها فسخطتها[1] ·

فهذا تعبير بليغ عن الرضى بقضاء الله تعالى وقدره ، وهذا مقام عالٍ في التوحيد لايبلغه إلا أقوياء الإيمان، والذي يعين على بلوغ هذا المقام التجرد من حظ النفس والتسليم الكامل لله تعالى ·

والرضى بقضاء الله جل وعلا منـزلة أعلى من منـزلة الصبر، وقد جاء في كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : أما بعد فإن الخير كله في الرضى ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر[2] ·

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٧٧ .

وقال الإمام ابن القيم في حقيقة الرضى : وليس من شرط الرضى أن لايحسَّ بالألم والمَكاره ، بل أنْ لايعترض على الحكم ولا يتسخطه ، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه وطعنوا فيه، وقالوا : هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة وهما ضدان ؟

قال : والصواب أنه لاتناقض بينهما ، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرِّضى،كرِضَى المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضى المجاهد بمايحصل له في سبيل الله تعالى من ألم الجراح وغيرها(١) .

قال الحافظ ابن كثير : وكان أبو عثمان [يعني الحيري] يُنشد :

أسأتُ ولم أحسن وجئتك هاربا وأيــن لعبد عن مواليه مـهرب
يؤمِّل غفرانًا فإن خـــاب ظـنه فما أحدٌ منه على الأرض أخيب(٢)

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ .

وهذا مثل من الأدب الإسلامي ، حيث سخر هذا العالم موهبته الشعرية في التعبير عن اعترافه بالتقصير ولجوئه إلى الله جل وعلا وطلب المغفرة منه، ويشبِّه نفسه في فراره إلى الله تعالى بالعبيد المملوكين في الدنيا الذين لايستطيعون الفرار من مواليهم ، وإن كان المشبه به لايعتبر شيئًا في مقارنته بالمشبه لأن الخالق جل وعلا لايقارن بالمخلوق ، ولكنه أراد أن يقول : إذا كان العبد لا يستطيع الفرار من مواليه فمن باب أولى أني لا أستطيع الفرار من ربي إلا إليه جل وعلا .

قال الحافظ ابن كثير : وروى الخطيب أنه [يعني أبا عثمان الحيري] سئل : أي أعمالك أرجى عندك ؟ قال : إني لما ترعرعت وأنا بالرَّيّ - وكانوا يريدونني على التزويج فأمتنع - فجاءتني امرأة فقالت: ياأبا عثمان قد أحببتك حبا أذهب نومي وقراري ، وأنا أسألك بمقلب القلوب وأتوسل به إليك إلاَّ تزوجتني ، فقلت : ألك والد ؟ فقالت : نعم ، فأحضرتْه فاستدعى الشهود فتزوجتها، فلما خلوت بها إذا هي عوراء عرجاء شوهاء مشوهة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي ، وكان أهل بيتي يلومونني على تزويجي بها، فكنت

أزيدها برّا وإكراما ، وربما احتبستني عندها ومنعتني من الحضور إلى بعض المجالس ، وكأني كنت في بعض أوقاتي على الجمر وأنا لا أبدي لها من ذلك شيئًا ، فمكثت كذلك خمس عشرة سنة، فما شيء أرجى عندي من حفظي عليها ماكان في قلبها من جهتي [1] .

فهذا مثل جليل في الصبر على المكروه والرضى بقضاء الله وقدره جل وعلا،وفي صبره هذا تقدير عظيم للعمل الصالح والثواب الأخروي.

إن الذي يتحمل المشقة في سبيل إسعاد الآخرين قد بلغ مستوًى عاليًا في مكارم الأخلاق ، حيث اتصف بخلق الإيثار الذي هو من صفات الكمال .

وإن في هذا الخبر موعظةً للذين يرون من زوجاتهم مايكرهون، فإنهم يثابون على الصبر على ذلك ماداموا قد رضوا عن زوجاتهم من ناحية الاستقامة على أمور الدين .

وإنهم بذلك يطبقون ماجاء في توجيه النبي ﷺ حيث يقول:

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ – ١٢٣ .

«لاَيَفْرَكْ [1] مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقا رضي منها آخر » رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [2] .

---

(١) أي لايبغض .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٤٦٩ ، كتاب الرضاع (ص ١٠٩١) .

من مواقف هُدْبَة بن خالد رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر المحدِّث هُدْبَة بن خالد القيسي مع أمير المؤمنين المأمون ، قال : وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده ، فلما رُفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ماتناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعت ياشيخ ؟ فقال : بلى، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « من أكل ماتحت مائدته أَمِنَ من الفقر»، قال : فأمر له المأمون بألف دينار [1] .

فهذا مثل من شكر النعمة والوعي الجيد للعلم والتطبيق الدقيق للسنة يقدمه العالم المحدث هدبة بن خالد القيسي، وقد حاز بذلك إعجاب أمير المؤمنين المأمون بعدما أنكر عليه ذلك العمل.

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون واعيًا بعلمه ، مستحضرا له عند المناسبات ، وأن يطبقه عمليا ليكون قدوة لغيره .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد بالله رحمه الله

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد ابن الموفق العباسي : وذكر الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قال: كنت يوما عند المعتضد وخادمٌ واقف على رأسه يذبُّ عنه بمذبَّة[1] في يديه، إذ حركها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسه، فأعظمتُ أنا ذلك جدا وخفت من هول ماوقع ، ولم يكترث الخليفة لذلك،بل أخذ قلنسوته فوضعها على رأسه،ثم قال لبعض الخدم: مُرْ هذا البائس ليذهب لراحته فإنه قد نعس،وزيدوا في عِدَّة من يذبُّ بالنوبة،قال الوزير:فأخذنا في الثناء على الخليفة والشكر له على حلمه،فقال:إن هذا البائس لم يتعمد ماوقع منه وإنما نعس، وليس العتاب والمعاتبة إلا على المتعمد، لا على المخطئ والساهي[2] .

فهذا مثل من أخلاق أمير المؤمنين المعتضد بالله العالية ، حيث

---

(١) أي بمروحة .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٩٧ – ٩٨ .

كان يتصف بالحلم والسماحة مع ماكان يتصف به من الشجاعة والحزم والشدة ، وهذا يبين أن شدته كانت على المتجبرين الظالمين، والمفرطين الذين كانوا يتعمدون الإهمال والتقصير ، وكان يقصد من وراء ذلك تحقيق مصالح رعيته ، أما الضعفاء فإنه كان رحيما بهم، يحلم عن جاهلهم ويغفر زلة مخطئهم .

قال الحافظ ابن كثير : ورفع [يعني عبيد الله بن سلمان] إلى المعتضد قوما يجتمعون على المعصية فاستشار وزيره في أمرهم فقال: ينبغي أن يُصلب بعضهم ويحرق بعضهم ، فقال: ويحك لقد برَّدتَ لهب غضبي عليهم بقسوتك ، أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها ، وأنه سائله عنها ؟ ولم يقابلهم بما قال الوزير[1] .

وهذا أيضا مثل من رحمة المعتضد بالله وعدله ، فالعقوبات إذا كان فيها حكم شرعي فإنه لايجوز للوالي مخالفته ، أما إذا كانت من باب التعزيرات فإنه لايجوز للوالي أن يتجاوز بها حدود الاعتدال، لأن ذلك من الظلم ، وهو مفسد للعلاقات بين الراعي والرعية .

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٨ .

من مواقف الوزير علي بن الجراح رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير الخليفتين المقتدر والقاهر قال : كان ثقة نبيلا فاضلا عفيفا ، كثير التلاوة والصلاة والصيام يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم ·

قال : ورُوي عنه أنه قال : كسبت سبعمائة ألف دينار ، أنفقت منها في وجوه الخير ستمائة ألف وثمانين ألفا ·

قال : ولما دخل مكة حين نُفِيَ من بغداد طاف بالبيت وبالصفا والمروة في حرٍّ شديد ، ثم جاء إلى منـزله فألقى نفسه وقال: أشتهي على الله شربة ثلج ، فقال له أصحابه : هذا لايتهيأ هنا ، فقال: أعرف ولكن سيأتي به الله إذا شاء ، وأصبر إلى المساء ، فلما كان في أثناء النهار جاءت سحابة فأمطرت ، وسقط منها بَرَدٌ شديد كثير، فجمع له صاحبه من ذلك البرد شيئًا كثيرًا وخبأه له ، وكان الوزير صائما، فلما أمسى جاء به،فلما جاء المسجد أقبل إليه صاحبه بأنواع الأشربة وكلها ثلج،فجعل الوزير يسقيه لمن حواليه من الصوفية والمجاورين،ولم

يشرب هو منه شيئا،فلما رجع إلى المنـزل جئته بشيء من ذلك الشراب كنا خبأناه له،وأقسمت عليه ليشربنَّه فشربه بعد جهد جهيد، وقال: أشتهي لو كنت تمنيت المغفره، رحمه الله وغفر له[1] .

ففي هذا الخبر مثل جليل في البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا العطاء الكثير من هذا الوزير المحسن يدل على قوة إيمانه وشدة استحضاره للحياة الآخرة التي يكون فيها الثواب الجزيل على الأعمال الصالحة .

وكان من عاجل البشرى له في الدنيا أن استجاب الله تعالى له فحقق له وجود ماتمناه من الثلج في مكة التي لايمكن وجود الثلج فيها لبعدها الشاسع عن الجبال التي ينقل منها الثلج ، حيث نزل ذلك المطر المشتمل على البَرَد فتوافر له ما اشتهاه من الثلج ، ولكنه بعدما حصل له ما اشتهاه ندم على تمني ذلك واشتهى أن يكون تمنى المغفرة، لأن الله جل وعلا حقق له مراده فأحبّ أن يكون ماخطر على باله هو

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٣١ .

مغفرة ذنوبه ليكون هذا الأمر محقَّقا ، وهذا دليل على تعظيمه لله تعالى وشدة استحضاره ثوابه وعقابه .

وإن ما حصل له من استجابة دعائه دليل على إخلاصه في عمله لله تعالى ، خاصة ماكان من إنفاقه الكثير من ماله في سبل الخير، رحمه الله تعالى .

من مواقف أبي بكر الباقلاني رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: ذكر الخطيب وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم ، فلما انتهى إليه إذا هو لايدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع، ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار بقفاه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقرى، فلما وصل إليه انفتل فسلم عليه ، فعرف الملك ذكاءه ومكانه من العلم والفهم فعظمه.

قال:ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل، ليستفز عقله بها ، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك ، فجعل لايألو[1] جهدًا أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير،فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة،فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك

(١) أي لايقصر .

استكشف الأمر فإذا هو قد جرح نفسه بما أشغله عن الطرب، فتحقق الملك وفور همته وعلو عزيمته،فإن هذه الآلة لايسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى .

قال :وقد سأله أحد الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: مافعلتْ زوجة نبيكم؟وماكان من أمرها بما رُميت به من الإفك ؟ فقال الباقلاني مجيبا له على البديهة : هما امرأتان ذُكرتا بسوء : مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل ، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج - يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم - وكلاهما بريئة مما قيل فيها ، فإنْ تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله منـزهتان مبرأتان من السماء بوحي الله عز وجل ، عليهما السلام[1] .

ففي هذا الخبر فهم ثاقب وعلم غزير وقوة في الدين، حيث فهم القاضي أبو بكر الباقلاني مقصود ملك الروم في محاولة إذلال علماء

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٤ .

المسلمين ، فتفادى ذلك بتلك الحركة الجيدة ، حيث دخل ذلك الباب على قفاه ،ثم استدار إلى الملك ففوَّت عليه مراده من الدخول عليه على هيئة الركوع له ، وفي هذا السلوك العالي إعزاز للإسلام وأهله وإذلال للكفر وأهله .

وحينما أراد ملك الروم أن يستفز عقل الباقلاني بتلك الآلة حتى يطرب - وهو يعلم أن المسلمين المتقين لايفعلون ذلك - تخلص من ذلك الموقف بإقدامه على جرح نفسه ليشغله الألم عن التأثر بتلك الآلة الموسيقية ، وهذا مثل من الحزم الشديد والعقل الرشيد والإيمان الراسخ والصبر القوي ، وبهذا التصرف الحكيم فوَّت هذا العالم على ذلك الملك الفرصة في استفزازه وتحطيم معنويته ، وكان بذلك محل إعجاب ذلك الملك وتقديره .

ثم يظهر علم الباقلاني وفهمه ونباهته في جوابه لذلك الأسقُف الذي أراد إهانة النبي ﷺ بلمْز عائشة رضي الله عنها ، حيث دافع عنها بجواب مُسكتٍ محيِّر ، وذلك بأن قرن ذكرها بذكر مريم عليها السلام التي يعظمها النصارى ، ثم ذكر تبرئة الله جل وعلا لهما .

وهكذا ينبغي أن يُختار وفود المسلمين إلى زعماء الكفار حتى يظهروا عظمة الإسلام والمسلمين .

موقف لأبي مسلم أحمد الأبار رحمه الله

من الأمثلة الجيدة على حرص العلماء على تطبيق التكاليف الشرعية ماذكره جعفر الخُلْدِي عن العالم الرباني أبي مسلم أحمد بن علي الأَبَّار ، قال : كان الأَبَّار من أزهد الناس ، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خراسان ، ثم وصل إلى بَلْخ وقد مات قتيبة ، فكانوا يعزُّونه على هذا ، فقال: هذا ثمرة العلم ، إني اخترت رضى الوالدة[1] .

فهذا فقه عميق من هذا العالم ، فإن أهم شيء يُطلب له العلم هو العمل الصالح،وإن من أزكى الأعمال الصالحة برَّ الوالدين،فلئن فاته عُلوُّ الإسناد في بعض الأحاديث فلقد أدرك ماهو أهم من ذلك وهو ثمرة العلم النافع،وهذا مثل من الاعتدال في طلب العلم، فلا ينبغي أن يكون عائقًا عن أداء الواجبات الدينية، ولا أن يُهمل بأن تقدَّم عليه النوافل التي هي أقل أهميةً،فضلا عن أن تقدَّم عليه مطالب الدنيا وشواغلها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٣ .

من مواقف بقيّ بن مخلَّد الأندلسي رحمه الله

من نماذج الإحسان ماروي عن الإمام بقيٍّ بن مخلَّد عالم الأندلس أن امرأة جاءت إليه فقالت : إن ابني في الأسر ولاحيلة لي فيه، فلو أشرت إلى من يفديه فإني والهة ، قال : نعم، انْصَرِفي حتى أنظر في أمره،ثم أطرق وحرك شفتيه ،ثم بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال : كنت في يد ملك فبينا أنا في العمل سقط قَيدي، قال : فذكر اليوم والساعة ، فوافق وقت دعاء الشيخ ، قال: فصاح عليَّ المُرَسَّم بنا، ثم نظر وتحير ، ثم أحضر الحداد وقيَّدني ، فلما [فرغ منه] ومشيت سقط القيد ، فبُهِتوا ودعوا رهبانهم ، فقالوا: ألك والدة ؟ قلت : نعم، قالوا : وافق دعاءها الإجابة ٠

ثم قالوا : قد أطلقك الله فلا يمكننا أن نقيدك ، فزودوني وبعثوا بي[1] .

فهذا مثل من بذل المعروف والإحسان عن طريق الدعاء

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٠ .

الصالح، فقد قام هذا العالم الرباني بما يستطيعه من تلبية طلب تلك المرأة ، حيث توجه إلى الله تعالى أن يخلِّص ابنها من الأسر، وهذا دليل على اهتمامه بأمر تلك المرأة وابنها ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه بأن نزع من تلك القيود فعاليتها فأصبحت تسقط ولاتثبت على ذلك الرجل رغم محاولتهم تثبيتها ، فأدرك رهبانهم أن وراء ذلك الرجل دعاء صالح قد اخترق حجب الغيب وسقط معه مفعول الوسائل والأسباب المادية ، فأطلقوا ذلك الأسير وأكرموه·

وهذه من خوارق العادات التي أكرم الله تعالى بها ذلك الولي الصالح فاستجاب دعاءه ·

من مواقف ظهير الدين الأهوازي رحمه الله

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الوزير أبي شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين الأهوازي ، حيث قال عنه : كان من خيار الوزراء كثير الصدقة والإحسان إلى العلماء والفقهاء ، وسمع الحديث من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وغيره ، وصنف كتبا منها كتابه الذي ذيَّله على تجارب الأمم ، وَوَزَر للخليفة المقتدي ، وكان يملك ستمائة ألف دينار فأنفقها في سبيل الخيرات والصدقات ٠

قال له رجل:إلى جانبنا أرملة لها أربعة أولاد وهم عراة وجياع، فبعث إليهم مع رجل من خاصته نفقة وكسوة وطعاما، ونزع عنه ثيابه في البرد الشديد وقال : والله لا ألبسها حتى ترجع إليَّ بخبرهم ، فذهب الرجل مسرعا بما أرسله على يديه إليهم، ثم رجع إليه فأخبرهم أنهم فرحوا بذلك ودعوا للوزير ، فسُرَّ بذلك ولبس ثيابه٠

قال : وجيء إليه مرة بقطائف سكرية فلما وُضعت بين يديه تنغَّص عليه بمن لايقدر عليها ، فأرسلها كلها إلى المساجد، وكانت كثيرة جدا فأطعمها الفقراء والعميان ٠

قال : وكان لايجلس في الديوان إلا وعنده الفقهاء ، فإذا وقع له أمر مشكل سألهم فحكم بما يفتونه ، وكان كثير التواضع مع الناس خاصتهم وعامتهم[1] .

فهذه أخلاق عالية من الوزير أبي شجاع ، فقد كان متصفا بالتواضع والرحمة والعدل ، وكونه يخلع ثيابه في ذلك اليوم الشديد البرد حتى يتأكد من وصول نفقته إلى المحتاجين دليل على شعوره البالغ بمآسي رعيته ، ورغبته في مواساتهم ، وكأنه أراد بتعرضه للبرد أن يعاتب نفسه على تقصيره في تفقد أمور الفقراء الذين يتعرضون لقسوة البرد ، ليكون بإحساسه بألم البرد أقدر على تذكر آلام الفقراء وتحقيق آمالهم .

وحينما وُضع بين يدي هذا الوزير ذلك الطعام الفاخر تذكر من لايستطيعون الحصول عليه من رعيته فزهد فيه وآثر به الفقراء على نفسه، وهذا نوع من الزهد الرفيع ، حيث يتم كبح النفس عن شهوتها

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٦٠ – ١٦١ .

مع كمال القدرة على تحقيقها ، وإحساسٌ دقيق بأحقية المحرومين الذين لم يخطر ببالهم أن يحصلوا على تلك النعم ٠

من مواقف أبي علي حسان بن سعيد الخالدي رحمه الله

من الذين اشتهروا ببذل المعروف والإحسان الشيخ الجليل أبو علي حسان بن سعيد الخالدي المخزومي المنيعي ، وهو ينتسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال عنه المؤرخ عبد الغافر :هو الرئيس أبو علي الحاجي [1] شيخ الإسلام المحمود بالخصال السنيَّة ، عم الآفاق بخيره وبرِّه، وكان في شبابه تاجرا ، ثم عَظُم حتى كان من المخاطبين من مجالس السلاطين، لم يستغنوا عن رأيه ، فرغب إلى الخيرات، وأناب إلى التقوى ، وبنى المساجد والرباطات ، وجامعَ مرو الروز ، يكسُو في الشتاء نحوًا من ألف نفس ، وسعى في إبطال الأعشار عن بلده، ورَفَع الوظائف عن القرى ، واستدعى صدقةً عامة عن أهل البلد ، غنيِّهم وفقيرهم ، فتُدفع إلى كل واحد منهم خمسةُ دراهم ، وتم ذلك بعده ، وكان ذا

---

(١) الحاجي بلغة العجم الذي حج بيت الله الحرام .

تهجد وصيام واجتهاد[1] ·

فهذا مثل على الاهتمام الكبير ببذل المعروف والإحسان ، وقد تعددت أنواع بر هذا الشيخ الجليل فشملت مواساة الفقراء ، والإحسان إلى جميع أهل بلده بما يشبه العطاء المعمولَ به في عصر صدر الإسلام ، وبناءَ المساجد والمساكن للمحتاجين ، إلى جانب سعيه في إزالة الضرائب عن أهل بلده ·

فلقد كان يعمل بعمل عدد من المحسنين ، وإذا عظم الدافع الإيماني واليقين القلبي أتى صاحبه بالعجائب من الأعمال الجليلة ·

قال الإمام الذهبي : وقيل : إن امرأة أتته بثوب لينفق ثمنه في بناء الجامع ، يساوي نصف دينار ، فاشتراه منها بألف دينار، وسلَّمت المال إلى الخازن لإنفاقه ، وخبَّأَ الثوب كفنًا له[2] ·

فهذا موقف كبير في السماحة والسخاء ، حيث دفع هذا الشيخ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٦ – ٢٦٧ .

الجليل ألف دينار ثمنا لذلك الثوب ليكون هذا المبلغ في بناء المسجد٠

وإحساس مرهف نحو الحياة الآخرة ، وذلك في اهتمامه بذلك الثوب الذي قد يكون هو كل ماتملكه تلك المرأة ثم جادت به لله تعالى، وجاد هو بألف دينار ليكون كفنا له بعد الموت ٠

فما أبلغ اهتمام هذا الشيخ بدينه ومستقبله بعد الموت !

من مواقف عماد الدين إبراهيم المقدسي رحمه الله

من مواقف العلماء في العمل الصالح والإحسان إلى الناس ماذكره الشيخ ضياء الدين المقدسي من أخبار الشيخ عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي ، فمنها ماذكره عن عباس بن عبد الدايم المصري الكناني قال : كنا يوما نمشي مع الشيخ العماد إلى دعوة فلقي في السوق رجلا أعمى يسأل ، فقال : يافلان تعال معنا، قال: فاستحيَى الضرير كثيرا من أجل سؤاله ، قال : فلما دخلنا إلى البيت انبسط الشيخ مع الضرير وقال : يافلان كلُّنا سُؤَّال ، وما زال يقول له حتى زال ماكان عنده من الحياء[1] .

فهذا سلوك نبيل من هذا الشيخ الجليل في مواساة الفقراء والرفع من معنويتهم ، وقد جمع الشيخ العماد في هذا بين المواساة المادية والمعنوية ، فحينما رأى ذلك السائل قد انكسرت نفسه وغلبه الحياء صار يلاطفه حتى زال ماخطر في نفسه وارتفعت معنويته .

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٨ .

وقد ذكر له الشيخ الضياء أخبارًا في بذل المعروف ، فمن ذلك ماذكره الحافظ ابن رجب في ترجمته قال : ثم ذكر الضياء من كرمه وحسن عشرته أن بعض أصحابه كانت تكون له الحاجة إليه فيمضي إلى بيته فيقيم عنده اليوم واليومين ، قال : ومارأيته يشكو من ذلك شيئًا قال : وما أظن أني دخلت عليه قط إلا عرض علي الطعام ٠

قال : ولم يزل هذا دأبه من وقت ماعقلنا ، وكان يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم كثيرا ، وربما بعث إلى الناس نفقةً سرّا ٠

وذكر أنه كان إذا غاب أحد من إخوانه أرسل إلى بيته النفقة وغيرها، وربما جاء بنفسه إليهم، قال : وربما كان بعض الناس يرسل إليه يشتري له حاجة فربما زاد على ثمنها من عنده ولايُعلمه بذلك وكان يَلْقى الناس بالبشر الدائم (١) ٠

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٧ .

من مواقف الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور (١)

قال المؤرخ أبو شامة : قال ابن الأثير : كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيمًا بالنَّاس، متعطفًا عليهم، عادلاً فيهم ، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد بناء مسجد الخَيْف بمِنى ، وغرم عليه أموالاً عظيمة ، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمس مئة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة (٢) ، فكل مافيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وست مئة . ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن [أبي] هاشم خِلَعًا سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه . وعمر أيضًا المسجد

---

(١) هو جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور كان وزير السلطان عماد الدين زنكي ثم لولديه سيف الدين وقطب الدين في الموصل ، توفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى .

(٢) الفضة . انظر " قاموس الفارسية " : ٧٤٧ ، و "معجم متن اللغة " : ٥/ ٥٢٧ . ذكره محقق الكتاب .

الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان(١) في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيرًا . وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيرًا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة .

قال : ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعًا أنه بنى سورًا على مدينة النبي عليه السلام ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْك وضُرٍّ معهم . رأيت بالمدينة إنسانًا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعوَ له، لأنا كُنا في ضرٍّ وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحدنا مايواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سورًا احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا، فكيف لاندعو له !

---

(١) واد بين مكة والطائف ويبعد عن مكة حوالي ٤٠ كيلا .

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرًا ،فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها ! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء،سوى الإدرارات والتعهُّدات،قال:كان له كل يوم مئة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره .

قال : ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دجْلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه . وبنى أيضًا جسرًا على نهر الأريار عند الجزيرة أيضًا . وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنْجار، ونَصِيبين ، وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي ، رئيس أصحاب الشَّافعي ، رضي الله عنه، بأصبهان ، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذَان ، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً ، وكذلك غيرهما من الصُّدُور والعلماء ومشايخ الصُّوفية ، وصارت المَوْصلُ في أيامه مقصدًا وملجأ .

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات ، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدَّق· حكى لي والدي قال: كنتُ يومًا عنده وقد أُحضر بين يديه قُنْدُز[1] ، ليُعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قُنْدُزًا بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير · قال: فراجعناه غير مرة فلم يفعل .

قال : وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر المَلاء ، فأحضره جمال الدين وسلَّم إليه مالاً ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفذ غيره، فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئًا آخر ففني ، ثم أرسل يطلب مايخرجه، فقال جمال الدين للرسول : والله ماعندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر

(١) هو القندس ، ثعلب الماء ، تتخذ من جلده فراء فاخرة يلبسها السلاطين . انظر «الألفاظ الفارسية المعربة» ١٢٩ – ١٣٠ . ذكره محقق الكتاب .

التي في داري فبيعوها وتصدَّقوا بثمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر . فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها .

قال : وحكى لي بعضُ الصُّوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النَّسَائي، شيخ الشيوخ بالمَوْصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي : انطلق إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك . ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام ، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماشٌ كثير ، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال . فقال لي : تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة، فتوصل هذه الرِّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلانًا العربي ، فتوصل إليه هذه الرِّزْمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السَّلام، توصِّل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة

وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى . قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى ، فرأينا به نحو مئة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوفُ الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري ، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي ، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار . فانقلبت المدينة بالدُّعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا .

قال : وحكى لي والدي قال : رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيرًا ، فطلب منه شيئًا ، وتردَّد إليه عدَّة أيام، ثم انقطع، فسأل عنه، فقيل: إنه سافر. فشقَّ ذلك عليه، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين . فأرسل إليه خلْعةً ونفقة إلى ماردين .

قال : ولو رُمتُ شرح مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها .

قلت : وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب

«الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين في الموصل سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة ، فعرض عليَّ الدخول إلى دار في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط،فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوَى،وأتابك قد ركب إلى المَيدان[1] ، وينفذ إلي يقول:اركب،فأنا واقف أنتظرك٠فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث٠ فوجدتُ يومًا منا خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، ومايتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة ٠ قال: قل٠ قلت: أقول لك ما قاله الشريف الرضي :

ماناصَحَتْك خفايا الودِّ من أحدٍ ما لم يُصِبْك بمكروهٍ مـن العَذَل
مــودَّتي لـك تـأبى أن تُـسَامحني بـأن أراكَ عـلى شيءٍ منَ الزّللِ

وقد بسطتَ يدَك في إنفاق المال في الصَّدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين مايحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم

---

(١) أتابك لقب أمير الموصل .

عليه، ولو أن الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيرًا ، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس[1] .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٢٨ .

من مواقف السلطان نور الدين رحمه الله

كانت لهذا السلطان العادل مشاريع خيرية كثيرة وأعمال إصلاحية فائقة ، ولقد ذكر المؤرخ أبو شامة بعض هذه الأعمال الإصلاحية حيث يقول : وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعهُ في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان ومن أحسن ماعمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلاَّء[1] رحمه الله ، وهو رجل من الصالحين ، فقيل له : إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل . فقال: إذا ولَّيت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكُتَّاب أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات ، ولايفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ . قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضًا بمدينة حماة جامعًا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ،

---

(١) هو عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي ، أبو حفص ، معين الدين ، يعرف بعمر المَلاَّء ، لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها . ذكر ذلك المعلق .

وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم ، إما بزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد[1]،ومن أعظمها البيمارَسْتان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جدًّا بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير .

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعرًا بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة ، ليَقع ماقدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن مايعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لايُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لاسيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْف على الفقراء والمنقطعين ، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي . ورُوي أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي ، والله أعلم .

---

(١) يعني المستشفيات .

وبلغني في أصل بنائه نادرة ، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيمًا ، فشاور نورُ الدين أمراءه ، فكلٌّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى ، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه ، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه ، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين، حيث جمع لهم الحُسنَيين ، وهما الفداء وموت ذلك اللعين· فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان ، ومنعَ المال الأمراء ، لأنه لم يكن عن إرادتهم كان ·

وقال ابن الأثير : وبنى أيضًا الخانات في الطرق، فأَمنَ الناس وحُفظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ (١) من البرد والمطر · وبنى أيضًا الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من

---

(١) أي في ستر " اللسان " (كنن) . ذكره محقق الكتاب .

يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحدًا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حِذْرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضًا ، وكان هذا من ألطف الفِكَر و أكثرها نفعًا ٠

قال : وبنى الرُّبط والخانقاهات في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرَّ عليهم الإدْرارات الصالحة، وكان يُحْضِرُ مشايخَهُم عنده، ويقرِّبُهُمْ ، ويدنيهم ويبسطهم ، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته ، ويُقبلُ عليه بحديثه٠ وكذلك كان أيضًا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر ، فقصدوه من البلاد الشَّاسعة ، من خُرَاسان وغيرها٠ وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيبًا يقول : ومن المعصوم ؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه ٠

قال:وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النيْسَابوري، الفقيه الشافعي ، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ

في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يومًا عند نور الدين .فقال له : ياهذا ، إن صَحَّ ماتقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكرها ، وهي العلم والدين .وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ماذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحمل سيئةَ هذا- إن صحَّتْ - مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك ، فكُفَّ عنه .

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب[1] .

ثم ذكر المؤرخ أبو شامة عن العماد الكاتب أنه قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ على أُجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله . فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصُّوفي، وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٥ .

سنة. قال الملك العادل : كم أجرة السنة ؟ فقالوا: مئة وخمسون قرطاسًا . وذكروا سيرته وطريقته وفقره . فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك ، وبإخراجه من الحبس ، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه [1] .

وهذه النصوص فيها ما يشعر بقوة إيمان نور الدين ورسوخ دينه، حيث كان يُظهر محبته وولاءه لعلماء الدين والعُبَّاد ويدافع عنهم ويُبكِّت من تصدى لهم بالنقد والعيب، وهذا ميزان دقيق يوزن به إيمان الإنسان وولاؤه لله تعالى ولرسوله ﷺ ولدينه ، أما الذي يقرِّب العلماء والبارزين من المتقين مجاملة لهم وكسبا لرأيهم في الموقف التي يحتاج فيها إليهم فهذا نوع من النفعية والنفاق الذي يمكن صدوره من بعض السلاطين وإن كانوا في مركز القوة المادية لشعورهم بأن العلماء هم الذين يهيمنون – حقيقة – على القوة المعنوية ، لثقة كثير من المسلمين بهم وتبعيتهم لهم .

---

(١) كتاب الروضتين ١ /

من مواقف السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

قال المؤرخ أبو شامة : قال العماد [يعني الكاتب] : ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة - شَرَّفها الله تعالى- عن الحاجِّ ، وتعويض أميرها بجلاب غَلَّة تُحمل إليه في كُلِّ سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية .

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ماينسب إلى الضَّرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌّ حُبِسَ حتى يؤديَ مَكْسَه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيرًا لايملك ، فهو يحبس ولايُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفة ولاتُدْرَك . فقال السُّلْطان: نريد أن نُعوِّض أميرَ مكَّة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعًا استوعبها ارتفاعًا وانتفاعًا، فلا يكونُ لأهل مكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ[1]

(١) الإِردب : كيل لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعًا بصاع النبي ﷺ ، يزن اليوم ٣٩.٥٨٨ كيلاً . انظر "معجم متن اللغة" : ٢/ ٥٦٩ . ذكره محقق الكتاب .

قمح إلى ساحل جُدَّة ، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها ، ويثق أهل الحرمين من الدَّوْلة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضًا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء ، ومَنْ هناك من الشرفاء ، ووقف لها وقوفًا،وخلَّد بها إلى قيام الساعة معروفًا، فسقطت المكوس،واغتبطت النفوس،وزاد البِشْرُ وزال العُبوس، واستمرت النُّعمى ومرَّ البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين [يعني وخمسمائة][1] .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٩ .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

من مواقف بذل المعروف والإحسان ماكان من شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الأمير قطلوبك المنصوري : أن ابن تيمية دخل عليه مع تاجر يشفع له في قضاء حقه فقال له قطلوبك : إذا رأيتَ الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير ، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الأمير وبئس الفقير[1] ، فقال له ابن تيمية : كان فرعون أنحس منك وموسى خيرًا مني ،وكان يأتي إلى بابه كل يوم يأمره بالإيمان ، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه، فلم يسَعْه إلا امتثال أمره ووفَّى الرجل حقه[2] .

فهذا موقف جليل من الإمام ابن تيمية حيث بذل جاهه لصاحب الحق وشفع له عند السلطان ، ولَمَّا استشهد ذلك السلطان بالقول المذكور الذي لم يكن موافقا للحكمة نبهه ابن تيمية إلى أن

---

(١) المراد بالفقير العالم ، وذلك على اصطلاح الصوفية حيث كانوا يسمون أنفسهم الفقراء .

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٣ .

الأمر ليس على إطلاقه بل إن مجيء العالم إلى الأمير لموعظته أو الشفاعة لأهل الحقوق أمر مطلوب شرعا ، وقد كان ابن تيمية رحمه الله موفقا للأسلوب المؤثر حينما ضرب المثل بموسى عليه السلام وفرعون ٠

من مواقف أبي الحسين ابن سمعون رحمه الله

من مواقف العلماء في الحرص على تطبيق الأحكام الشرعية ماذُكِرَ عن الإمام أبي الحسين محمد بن أحمد البغدادي ، المعروف بابن سمعون ، يقول صاحبه أبو محمد السُّنِّي : كان ابن سمعون في أول أمره ينسخ بالأجرة وينفق على نفسه وأمه ، فقال لها يوما : أحب أن أحج ، قالت : وكيف يمكنك ؟ فغلب عليها النوم، فنامت وانتبهت بعد ساعة وقالت : ياولدي حُجَّ ، رأيت رسول الله ﷺ في النوم يقول : دَعيه يحج فإن الخير له في حجه ، ففرح وباع دفاتره، ودفع إليها من ثمنها ، وخرج مع الوفد ، فأخذت العرب الوفد، قال: فبقيت عريانا، فجعلتُ إذا غلب عليّ الجوع ووجدت قوما من الحجاج يأكلون وقفت فيدفعون إليّ كسرة فأقتنع بها ، ووجدت مع رجل عباءة فقلت: هَبْهَا لي أستتر بها فأعطانيها فأحرمت بها ورجعت .

قال : وكان الخليفة قد حرَّم جارية وأراد إخراجها من الدار، قال السُّنِّي : فقال الخليفة : اطلبوا رجلا مستورا يصلح أن نُزوِّج هذه الجارية به ، فقيل : قد جاء ابن سمعون ، فاستصوب الخليفة ذلك

وزوجه بها .

فكان يعظ ويقول : خرجت حاجا .. ويشرح حاله . ويقول : ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ماترون !!

قال الذهبي : كان فاخر الملبوس [1] .

فهذا الخبر يبين حرص أهل العلم والإيمان على أداء الفروض والواجبات حتى ماكان منها مقيدا بالاستطاعة كالحج ، فهذا العالم الجليل ابن سمعون كان يعيش فقيرًا مع أمه ، ومع ذلك فإن نفسه تطمح إلى الحج ، وقد تعجبت أمه من طلبه ذلك لأنهما لايملكان أكثر من القوت الضروري، ولكن الله تعالى سخر له تلك الرؤيا التي رأتها أمه ، فكانت مقنعة لها بالسماح له بالحج، فباع وسيلة رزقهما وهي الدفاتر ليتمكن من نفقة الحج .

ويُبْتَلَى هذا العالم فَيَسْلُبُ ما معه قطَّاعُ الطريق ويبقى بدون ثياب ولاطعام ، ومع ذلك يواصل طريقه إلى الحج ، ثم يقارن بين حاله

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٥٠٦ – ٥٠٧ .

تلك وحاله بعد أن أنعم الله تعالى عليه ليشكر ربه جل وعلا ، وليجعل من حياته عبرة للآخرين في الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

إن الاهتمام بالعمل الصالح - وخاصة أداء الواجبات - دليل على ارتفاع مستوى الإيمان ، ويكون الإيمان أعظم رسوخا وقوة حينما لاتتيسر أسباب أداء العمل ، فيبيع الإنسان مايملك من أجل أداء هذا العمل كما فعل الإمام ابن سمعون رحمه الله تعالى .

فهرس المصادر والمراجع

- أُسد الغابة في معرفة الصحابة / لعز الدين علي بن محمد الشيباني «ابن الأثير» / الناشر: انتشارات إسماعليات في طهران.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب / لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري / الناشر : مصطفى محمد بمصر .
- الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: مطبعة مصطفى محمد في مصر .
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت .
- تاريخ الإسلام / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي / الناشر : دار الكتاب العربي .
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي / الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت .
- تاريخ دمشق/ للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله «ابن عساكر»/ الناشر: دار الفكر .

- تاريخ الطبري/ للمؤرخ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة / لأبي زيد عمر بن شبة النميري/ تحقيق : فهيم محمد شلتوت .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / للحافظ محمد المباركفوري / الناشر : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
- جامع العلوم والحكم / للحافظ عبد الرحمن «ابن رجب» الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت .
- جمع الفوائد / لمحمد بن محمد بن سليمان / الناشر : عبد الله بن هاشم اليماني – المدينة المنورة .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحافظ أبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني/ الناشر:مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر.
- الدرر الكامنة / للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: دار الجيل في بيروت .
- الدر المنثور / للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي/

الناشر: أمين دمج – بيروت .

- دلائل النبوة / للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني/ الناشر : عالم الكتب – بيروت .

- الذيل على طبقات الحنابلة/ للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد «ابن رجب » / الناشر : دار المعرفة في بيروت .

- الزهد / للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت .

- سنن الترمذي / للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية .

- سنن أبي داود/ للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد علي السيد – حمص .

- سنن الدارمي/ للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي/ الناشر: دار الريان في القاهرة، ودار الكتاب العربي في بيروت .

- سنن ابن ماجه/ للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية .

- سنن النسائي / للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي / الناشر : المكتبة التجارية الكبرى في مصر .
- سير أعلام النبلاء / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: مؤسسة الرسالة في بيروت .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / لأبي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم/ الناشر: دار العلم للملايين .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ الناشر: دار الفكر .
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة .
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- صفة الصفوة / للحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي/ الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- طبقات الحنابلة/ للقاضي محمد بن أبي يعلى / الناشر: دار المعرفة

في بيروت.

- طبقات الشافعية الكبرى/ للحافظ عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي/ الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- الطبقات الكبرى/ لمحمد بن سعد بن منيع/ الناشر: دار صادر في بيروت.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر ا لزرعي «ابن القيم» / الناشر : مكتبة النهضة الحديثة – بمكة المكرمة .
- عيون الأثر / للحافظ محمد ابن سيد الناس / الناشر : دار المعرفة – بيروت .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني» الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في مصر .
- الفتح الرباني / لأحمد بن عبد الرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث في القاهرة .

- القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي / الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / لعلاء الدين على المتقى البرهان فوري / الناشر: دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد.
- لسان العرب/ لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور/ الناشر: دار صادر – بيروت .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / للحافظ على بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت .
- مجموع فتاوى ابن تيمية / جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم / مطابع الرياض .
- المختار المصون من أعلام القرون / للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / الناشر : دار الأندلس الخضراء – جدة .
- مدارج السالكين / للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية/ الناشر : مطبعة السنة المحمدية – القاهرة .
- المستدرك على الصحيحين / للحافظ أبي عبد الله الحاكم

النيسابوري / الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب .

- مسند أحمد / للإمام أحمد بن حنبل الشيباني / الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر – بيروت .

- مسند الطيالسي / للحافظ سليمان بن داود الجارود/ الناشر: الطبعة المنيرية بالأزهر .

- المسند / للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي/ الناشر: عالم الكتب – بيروت ، مكتبة المثنى – القاهرة .

- المصنف / للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ الناشر: المجلس العلمي في الهند .

- المعجم الأوسط / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : مكتبة المعارف – الرياض .

- معجم البلدان / لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر : دار صادر ودار بيروت – بيروت .

- المعجم الكبير / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : وزارة الأوقاف – العراق .

- المغازي / لمحمد بن عمر الواقدي / الناشر: عالم الكتب – بيروت .
- منتخب كنز العمال / للعلامة على المتقي الهندي/ الناشر: المكتب الإسلامي ، دار صادر – بيروت .
- موارد الظمآن / للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر : المطبعة السلفية ومكتبتها – القاهرة .
- الموطأ / للإمام مالك بن أنس/ الناشر:دار إحياء التراث العربي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر / للحافظ أبي السعادات «ابن الأثير» / الناشر : دار إحياء الكتب العربية .
- الوافي بالوفيات / لصلاح الدين خليل الصفدي/ الناشر: فرانز شتايز بفيسادن .
- وفيات الأعيان / لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان / الناشر: دار صادر – بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
مواقف وعبر في الورع والزهد والخشية	٩
نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته	١١
من مواقف أبي بكر رضي الله عنه	٢٠
من مواقف عمر رضي الله عنه	٣٠
من مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه	٧٢
من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٧٥
من مواقف أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما	٨٥
من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٩٠
من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	٩٢
من مواقف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه	٩٣
من مواقف أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه	٩٦
من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه............	١٠١

الموضوع	الصفحة
من مواقف خباب بن الأرت رضي الله عنه	١٠٣
من مواقف عائشة رضي الله عنها	١٠٥
من مواقف زينب بنت جحش رضي الله عنها	١١٢
من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه	١١٤
من مواقف ثابت بن قيس رضي الله عنه	١١٩
من مواقف عبد الله بن عمر ضي الله عنهما	١٢١
من مواقف سعيد بن عامر بن حِذْيَم رضي الله عنه	١٢٨
من مواقف أبي سعيد الخدري رضي الله عنه	١٣١
من مواقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه	١٣٢
من مواقف هاشم بن عتبة رضي الله عنه	١٣٥
من مواقف عبد الله ابن السعدي رضي الله عنه	١٣٧
من مواقف الحسن بن علي رضي الله عنهما	١٣٨
من أخبار الأمم الماضية	١٤٠
من مواقف أبي مسلم الخولاني	١٤٤

الموضوع	الصفحة
من مواقف سالم بن عبد الله	١٤٩
من مواقف طاووس بن كيسان	١٥١
من مواقف عبد الملك بن مروان	١٥٤
من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد عبد العزيز رحمه الله	١٥٦
خروجه للنزهة والعبرة في ذلك	١٥٦
خبره مع الغراب ومافيه من العبر	١٥٨
خشيته من العذاب بالريح	١٥٩
خشيته من ارتكاب السيئات بمكة	١٦٠
ورعه عما حُمل على دواب البريد	١٦١
رده أحد أملاكه من الإقطاع	١٦٣
نماذج من تورعه عن المال العام	١٦٥
من مواقف إبراهيم بن أدهم	١٧٢
من مواقف إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة	١٧٥
من مواقف محمد بن واسع	١٧٧

الموضوع	الصفحة
من مواقف إبراهيم التيمي	١٩٠
من مواقف يونس بن عبيد	١٩٢
من مواقف مالك بن أنس	١٩٧
من مواقف محمد بن إدريس الشافعي	١٩٩
من مواقف حجاج بن منهال	٢٠٠
من مواقف ابن إدريس وعيسى بن يونس	٢٠٢
من مواقف هارون الرشيد	٢٠٥
من مواقف وكيع بن الجراح	٢١١
من مواقف زكريا بن عدي	٢١٥
من مواقف بشر بن الحارث	٢١٦
من مواقف يوسف بن معدان	٢٢١
من مواقف أحمد بن حنبل	٢٢٢
من مواقف سَرِيِّ السَّقطي	٢٤١
من مواقف عبد الرحمن بن أبي حاتم	٢٤٣

الموضوع	الصفحة
من مواقف أبي عبد الله البخاري	٢٤٦
من مواقف أبي جعفر الطيري	٢٥٧
من مواقف إبراهيم الحربي	٢٦٢
من مواقف حمدان البرذعي مع أبي زرعة	٢٦٣
من مواقف نصر بن علي الأزدي	٢٦٥
من مواقف محمد بن سعيد الكوفي	٢٦٧
من مواقف ابن الدجاجي	٢٦٩
من مواقف محمد بن المظفر الحموي	٢٧١
من مواقف أبي عبد الله الحميدي	٢٧٣
من مواقف أبي إسحاق الشيرازي	٢٧٤
من مواقف أبي الفتح النابلسي	٢٧٥
من مواقف أبي سعد ابن البغدادي	٢٧٧
من مواقف أبي العباس ابن الحطيئة	٢٧٨
من مواقف أبي عبيد ابن سلام	٢٧٩

الموضوع	الصفحة
من مواقف محمد الذهلي	٢٨١
من مواقف الربيع بن صبيح	٢٨٢
من مواقف ابن أبي شاذان	٢٨٣
موقف في القناعة والأمانة	٢٨٤
من مواقف الوزير ابن هبيرة	٢٨٨
من مواقف أبي عبد الله السعدي	٢٩٠
من مواقف الوزير نظام الملك	٢٩٢
من مواقف السلطان نور الدين زنكي	٢٩٤
توجيهات ومواقف في العمل الصالح	٢٩٩
من مواقف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه	٣٠١
من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٣٠٤
من مواقف أبي بن كعب رضي الله عنه	٣٠٦
من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه	٣٠٨
من مواقف ربيعة بن كعب رضي الله عنه	٣١٠

الموضوع	الصفحة
من مواقف عبد الله بن عمر ضي الله عنهما	٣١٣
من مواقف القاسم بن محمد	٣١٥
من مواقف عبد الله بن عون	٣١٧
من مواقف سفيان الثوري	٣١٩
من مواقف بعض المجاهدين	٣٢١
من مواقف أبي عبد الرحمن الأزدي	٣٢٥
من مواقف أبي جعفر المنصور	٣٢٧
من مواقف أبي عثمان الحيري	٣٢٩
من مواقف هدية بن خالد	٣٣٤
من مواقف المعتضد بالله	٣٣٥
من مواقف الوزير علي بن الجراح	٣٣٧
من مواقف أبي بكر الباقلاني	٣٤٠
من مواقف أحمد الأبار	٣٤٤
من مواقف بقي بن مخلد	٣٤٥

الموضوع	الصفحة
من مواقف ظهير الدين الأهوازي	٣٤٧
من مواقف حسان الخالدي	٣٥٠
من مواقف إبراهيم المقدسي	٣٥٣
من مواقف الوزير جمال الدين محمد بن أ بي منصور	٣٥٥
من مواقف السلطان نور الدين	٣٦٣
من مواقف السلطان صلاح الدين	٣٦٩
من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية	٣٧١
من مواقف أبي الحسين ابن سمعون	٣٧٣
المصادر والمراجع	٣٧٧
فهرس المحتويات	٣٨٥